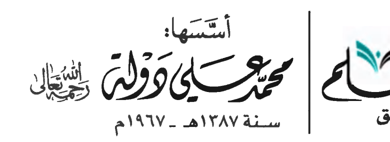
د. مشعل عبد العزيز الفلاحي

حين أضاء الكون






حين أضاء
الكون



الطبعة الأولى

١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق

هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣

kalam-sy@hotmail.com

الدار الشامية - بيروت

هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)

ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

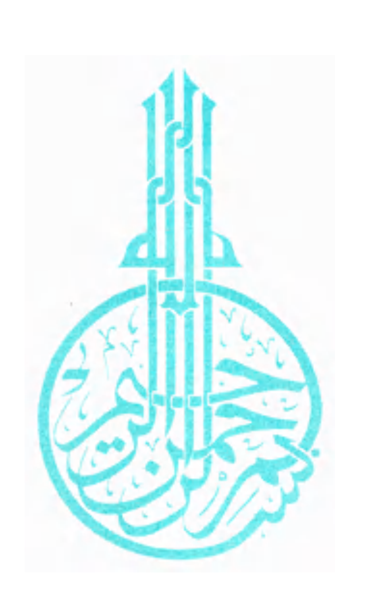
دار البشير - جدّة

٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤

د. مشعل عبد العزيز الفلاحي






بسم الله الرحمن الرحيم



المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، **وبعد:**

- **فهذا كتاب في سيرة رسول الله ﷺ** من لحظة الميلاد التي أضاءت لها قصور بُصرى بالشام، إلى لحظة الوفاة التي بان فيها كل شيء، **بما فيها الشمائل** التي ينبغي أن تكون هي أول شيء في هذا المعين الصافي.

- **وقد قررتُ وأنا أكتب لك هذه الأسطر ألَّا أسجل في هذه السيرة حرفاً دخيلاً عليها، والتزمتُ ما صحَّ منها فحسب**، فوقتك وفكرك عندي أجل من أن أشغله بتوافه القصص.

ورسمت لك معالم هدى في كل موقف، وبعثت همومك للعمل، وأثرت أشواقك للبناء، وجهدت أن أربطك بفكرة ناهضة ومشروع حياة وقضية تستحق العيش ما بقي الزمن! وأحســـب أنني ألقيت بك في بحر الحياة.

وهذه نوافذ وإضاءات وملامح من أصلها الكبير (قبس من ضياء) لعلك تجد من البسط هناك ما جرى عليه قلم الاختصـــار هنا، ويكفي أنــك تجري في مساحات الاقتداء.

الـمـؤلـف

د. مشعل بن عبد العزيز الفلاحي

المملكة العربية السعودية ـ القنفذة ـ حلي





الفصل الأول

قصة الميلاد والنشأة

١ـ قصة الميلاد.

٢ـ قصة النشأة.



قصة الميلاد

• وُلد نبيُّنا ﷺ يوم الاثنين:

- ورأت أمه حين وضعته نوراً أضاءت منه قصور بصرى من أرض الشـام، **ولا يترتّب على هـذا الميلاد أي عمل شرعي.**

- **وتقديس الأنبيـاء يأتي من خلال العمـل والاقتداء،** واحتفالات الموالد ليس من تراث الأنبياء في شـيء! ولو كانت لحظـة حقيقة بالاحتفـاء لكانت اللحظـة التي نزل الوحي بـ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ على قلب نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام.

- **ميلاد الإنسـان الحقيقي ليس هـو تلك اللحظة التي ولد فيهـا**، ولا ذلك الرقم المرسـوم فـي ذاكرتها، **وإنما اللحظات التي يعثر فيها الإنسـان على الهدايـة**، ويتذوّق فيها شـرف الرسـالـة، ويجـد لـه فكـرة حيـة يخوض غمارها، وهدفاً ومشروعاً يعيش من أجل ذكرياته الباقية في مستقبل الأيام.

- **الكبار لا تبجلهم لحظات الميلاد**، ولا ترفع من شأنهم ذكريات الزمان والمكان، **وإنما أحداث العمل في المسافة الفاصلة بينهم وبين أحلامهم هي التي من شأنها إحداث تلك الذكريات.**

• ولد ﷺ يتيماً:

- **والكبار لا تفصلهم أحداث اليتم عن مجريات الحياة الكبيرة، وإنما تزيدهم قناعة أنهم في حاجة لمزيد عناية بذواتهم وتأهيل لشخصياتهم.**

والزمن شاهد؛ فكم من يتيم ومعوق جاوزوا كل الظروف المحيطة بهم، وكتبوا أن هذه العقبات هي التي دفعت بهم لعروش المجد من جديد!.

- **لا تقف حائراً في بداية الطريق لأجل أسرتك ومجتمعك وظروف والديك**، قم فعانق الفضاء، واكتب رحلة المجد، واصنع لواقعك شيئاً مبهجاً، واكتب **حظك** فيه كما تشاء.

***



قصة النشأة

- **النسب الشريف:**

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف.

ـ **والأسماء لها أثر على أصحابها**، وقلَّ أن تجد اسماً جميلاً رائقاً إلَّا وله ظلال وارفة على صاحبه.

والأسرة مسؤولة عن اختيار أسماء أبنائها؛ فعليها أن ترعى هذا الحق قدره، وكم من عائد على صاحبه بعد طول زمان!.

- **فقده ﷺ لوالديه:**

توفي والده عبد الله وهو حمل في بطن أمه.

وتوفيت أمه وعمره ست سنين.

ـ الوالدان يشكلان شخصيات أبنائهم ويسهمان في نجاحهما ولكنهما ليسا كل شيء، وكم من متخلّف في ربوع أسرة! وكم من يتيم في ظلال المجد!.

• رضاعه وحضانته:

وأرضعتـــه ﷺ كل من ثويبـــة مولاة أبي لهـــب، وحليمة السعدية، **وحضنته**: أم أيمن (بركة الحبشية).

ـ تولـــت أم أيمن رضي الله عنها حضانته ﷺ، وعنيـــت به في باكر عمـــره حتى كبـــر ﷺ، فأعتقها وفـــاء لتلك الأيـــام، **والكبار يحفظون المعروف**، ويردون جميل الأيام حين يجدون فرصاً سانحة لذلك. وقلَّ أن تجد كبيراً تسديه يوماً شيئاً من جميل إلَّا عـــاد إليك بعد ذلـــك بأكثر ممَّا بذلت، وفـــوق تصورك، وكذلك الكبار.

• في بادية بني سعد:

ـ رضع ﷺ من حليمة السعدية في بادية بني سعد، **واللبن له أثر على صاحبه! والبوادي تصنع جزءاً كبيراً من حياة الرجال**، ومن فقه الأم بولدها الرضيع وفقه زوجها ألَّا يمكّن ابنهما من رضاع أي امرأة، وإنما عليهم أن يحســـنوا الاختيار، وإنّ دخيل الأخلاق في مرات كثيرة يأتي من خلال لبن الرضاع!.

• رعى ﷺ الغنم:

ـ والإنســـان لا ينفك في الأصل عن بيئته التي نشأ فيها، **والعمل شرف، وخير ما أكل الإنسان من عمل يده**، وفرق كبير

بين عاطل ينتظر عطاء المحسنين، وآخر ينقب الجبل لشرف نفسه وعز مستقبله، والمتسولون في عارضة الطريق لا يصلحون لقيادة الخلق، ودناءة الهمم لا تُبَوِّئ الإنسان مقامات الرجال.

ـ **ليست التربية حديثاً مفصولاً عن الواقع، وإنما هي تجربة عملية يخوض الأجيالُ فيها غمارَ العمل والتضحيات،** وإذا وجدت ناهضاً مسؤولاً عن حياته، قائماً بأعباء واقعه، مثيراً في مساحته؛ فاعلم أن ذلك نتيجة لأعباء الحياة في صغره، وإذا قرأت واقعك بوضوح أدركت هذا المعنى بجلاء.

ـ **علينا أن نحاول أن نوكِّل بعضاً من المسؤوليات لأبنائنا؛** بدءاً بمسؤوليته عن غرفته، وعنايته بها، وغسيله لثيابه، وتسليمه مصروفه الأسبوعي أو الشهري، وتعيين الأكبر مسؤولاً عن إخوانه، وهكذا حتى تكبر تلك الأجيال وأجسادها وأفكارها مغموسة في العمل والبناء لا مفصولة عنها، ومثل ذلك مع الأجيال التي يُراد لها القيام بمشاريع على مستوى مجتمعاتها وأمتها في قادم الأيام.

• حادثة شق الصدر:

عاش ﷺ يمارس حياته كأي شاب في ربوع مكة.. واستقبل حادثاً حين كان عمره ما بين الثلاث والأربع سنوات؛ أتاه جبريل فصرعه فشق عن قلبه واستخرج منه حظ

الشيطان، ثم غسله بماء زمزم، ثم لَأَمَهُ من جديد، وهذا شأن الأنبياء ولا طريق لنا إليه، غير أن الأسرة قادرة على بذل الأسباب الممكنة التي تأتي بمثل هذه المباهج الكبرى في حياة أبنائها في مستقبل الأيام.

- **وإذا كانت الأجيال أولوية ومشاريع كبرى في حياتنا استطعنا أن نبني لهم أحلام الغد البهيج بإذن الله تعالى.**

- **من الغبن أن تذهب كل أموالنا أو أكثرها في بناء بيت من حَجَر، ويفوتنا أن نبذل جزءاً من أموالنا في تربية هذه الأجيال** (مشروع الحياة الكبير)، وكم من اهتمام صنع واقعاً لم يكن في الحسبان!.

• لقد صنع محمد ﷺ لأمته مجد الدارين:

- وقصة الرضاع في البادية، ورعي الغنم ونحوها؛ كانت خطوات لتأهيل هذه الشخصية، **والأبناء مشاريع كبرى**، حين يُعتنى بها، وتدفع لها الأوقات والأموال؛ تأتي بمثل هذه الأحداث العظام في مستقبل الأيام.

وفي صحيح مسلم: من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلَّا من ثلاث: ... أو ولد صالح يدعو له**».



الفصل الثاني

قصة البعثة والدعوة

١ـ قصة البعثة.

٢ـ قصة الدعوة في مكة.



قصة البعثة

• بدء الوحي:

نزل الوحي على نبينا ﷺ في الغار، وعمره آنذاك أربعون عاماً.

وقد تهيأ ﷺ لهذا النزول **بالرؤيا الصالحة**، فكان لا يرى رؤيا إلَّا جاءت مثل فلق الصبح:

وكان يقول: «**إنِّي لَأَعْرِفُ حَجَراً بِمَكَّةَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ**».

وحُبِّبَ إليه العزلة في غار حـــراء، فيمكث الليالي ذوات العدد متعبِّداً لربه تبارك وتعالى.

ـ **والخيرات عادة لا تهتــف بأصحابها حتى يخطوا إليها من أوسع الأبواب.**

ـ **كل نعمة لها دليل، والعطايا لا تنزل باردة بمجرد سؤال، ولكل شيء ســبب**، ومن عرف الطريق اســتقبلته النعم قبل الوصول.

ـ **وحاجة الإنسان إلى ربه أعظم من كل حاجة**، ومن أراد هذه المعاني كما هي فليقبــل على ربه تعالى إقبال الصادقين الراغبين، وسيجري النعيم في حياته كيف يشاء.

• نزل جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ على نبينا ﷺ، فقالَ: «**اقرَأْ، قالَ: ما أَنا بقارئٍ، قــالَ: فأخذَني، فغَطَّنــي حتى بلَغَ منِّــي الجَهْد ثم أَرســلَني، فقالَ: اقرأْ، قلــتُ: ما أَنا بقــارئٍ، فأَخذَني فغطني الثانيةَ، حتى بلَغَ منِّي الجَهد، ثم أَرسلَني، فقالَ: اقرأْ، فقلتُ: ما أَنا بقارئٍ، فأخَذَني فغطَّني الثالثةَ، ثم أَرسلَني، فقالَ:** ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ١ ـ ٥]»، فرجَعَ بها رسول الله ﷺ يرجُفُ فؤادُه. وفي روايةٍ: ترجف بوادره.

ـ **للمشاريع أثقال وتكاليف وتبعات**، ومن أراد أن يحمل هموم أمته في شــيء فعليه أن يدرك أثقال مشروعه وتبعاته، ويقبل إليه إقبال الصادق، وإذا أخذه أخذه بحقه، وكل مشروع مهما كان مســتواه لا يؤخذ بهذا المعنى لا تتوقع أن ترى له أثراً في مستقبل الأيام.

هذا دين، وإذا كان نبيك ﷺ غُــطَّ حتى رأى الموت، فلا أقل من أن تســتذكر هذا المعنى وأنت قادم لساحة عمل، أو تريد أن تأخذ عن أمتك بعض همومها في مساحة ما.

ـ **علمتنا الحياة: أن كل مساحة من الدين تحتاج إلى بطل يأتي إليك فيحمل عنك هموم الحياة**، ومن يأتِ إلى مشروع أو فكرة أو قضيــــة بمفهوم: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١]، فقد ألقى في طريق أمته بحجر وجهد قدر وســعه في ردم العقبات في الطريق.

﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ بعــد أن تبلــغ جهدك، وترمي بكل ثقلك، وتستنفد طاقتك، ثم يأتي قدر الله تعالى بعد ذلك، فما عليك من سبيل، أمَّا أن تبدأ بفهم أرعن لقول ربك من أول الطريق، فلا تنتظر شيئاً بهيجاً في قادم الأيام.

• خديجة رضي الله عنها وكلماتها النورانية:

دخلَ ﷺ على زوجته خديجةَ بنتِ خويلِدٍ، فقالَ: «**زَمِّلُوني زَمِّلُونــي**» فزمَّلُــوهُ حتى ذهبَ عنــهُ الرَّوعُ، فقــالَ لخديجةَ: «**ما لي؟**» وأَخبرَها الخبرَ، وقال: «**لقدْ خشِــيتُ على نفْســي**» فقالتْ له خديجةُ: كلَّا أبشر، فـوالله ما يُخزيكَ اللهُ أَبداً، فوالله إنكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَصْدُق الحديث، وتَحمل الْكَلَّ، وتَكِسبُ المعدومَ، وتَقري الضيْفَ، وتُعِينُ على نوائبِ الحقِّ.

ـ وهذه شهادة زوجة، **والكبار لا يصنعون أثراً في أفكارهم ومشاريعهم حتى يكتبوا أضعافه أولاً في بيوتهم.**

- ممتع هذا المعنى الذي تشــهد به خديجة رضي الله عنها لزوجها رســول العالمين ﷺ: **(فوالله إنــكَ لَتَصِلُ الرَّحِــمَ، وتَصْدُق الحديث، وتَحمل الْكَلَّ، وتَكِسبُ المعدومَ، وتَقري الضيْفَ، وتُعِينُ على نوائبِ الحقِّ).**

- **والكبار رأس في الملمّات!** وعلى كل صاحب مشروع في الأرض أن يعيد قراءة هذا النص الكبير ويقارنه بواقعه في رحاب بيته أولاً، وبين أهلــه وأرحامه وجيرانــه ثانياً، وفي مجتمعه الذي يعيش فيه ثالثاً، ورابعاً وعاشراً.

- وقبل أن تدلف إلى الآخرين بفكرتك الناهضة ومشروعك الكبير وقضيتك الضخمة؛ عليك أن تسقي أولاً كل من حولك، فإذا رووا من قدوتك امتد الربيع في الأرض كيف تشاء.

- **وأخطر ما يواجه الإنسان اليوم هذا الانفصال الكبير بين أخلاقه ودوره في بيته ومن حوله، ومع أقرب الناس إليه، وبين أفكاره التي يبشّر بها في العالمين!.**

- وإذا وجدت هذا المعنــى: **(فوالله إنكَ لَتَصِــلُ الرَّحِمَ، وتَصْدُق الحديث، وتَحمل الْكَلَّ، وتَكِسبُ المعدومَ، وتَقري الضيْفَ، وتُعِيــنُ على نوائبِ الحقِّ)** يجــري في حياتك كما جرى في ســيرة نبيك ﷺ، فقد صحت لك خطــوة البداية، وفألك النجاح في كل شيء.

- **الكلمة التي يؤدي بها الإنسان رسالة؛** سواء الوالد في الأسرة، أو المعلم في المدرسة، أو مدير الدائرة، أو الداعية في دعوته، أو العالم في مشروعه العلمي؛ ما لم يسبقها **التطبيق العملي** لن تجد لها هتافاً في آذان الآخرين، وستظل حرفاً مفصولاً عن معناه، وكلمة تتصارع مع واقع صاحبها قبل أن تجد وهجاً عاطراً في أنفاس الآخرين وحياتهم.. وإذا أردت أن تعرف قدر هذا المعنى فاقرأ اعتراف زوجة لمعالم الحياة في حياة زوجها: **(فوالله إنكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَصْدُق الحديث، وتَحمل الْكَلَّ، وتَكِسبُ المعدومَ، وتَقري الضيْفَ، وتُعِينُ على نوائبِ الحقِّ)**.

• عند ورقة بن نوفل:

انطلقتْ بهِ خديجةُ رضي الله عنها حتى أَتتْ بهِ وَرَقَةَ بنَ نَوفل بنِ أَسدِ بْنِ عبدِ الْعُزَّى بن قصَي، وهو ابنُ عمِّ خديجة أَخي أَبيها، وكانَ امرأً قد تنصَّر في الجاهلية، وكانَ يكتُبُ الْكتابَ الْعِبرانيَّ، فيكتُبُ من الإنجيلِ بالعِبرانيةِ ـ وفي روايةٍ: الكتاب العربي، ويكتب من الإنجيل بالعربية ـ ما شاءَ الله أنْ يكتُبَ.

وكانَ شيخاً كبيراً قد عَمِيَ.

فقالتْ لهُ خديجةُ: يا بنَ عمٍّ! اسمعْ من ابنِ أخيك.

فقالَ له ورَقةُ: يا بنَ أخي! ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبَرَ ما رأى.

فقال له وَرَقَةُ: هذا الناموسُ الذي نزَّلَ اللهُ على مُوسى، يا ليْتني فيها جذَعاً، ليْتني أكونُ حيّاً إذْ يُخرجُكَ قومُك.

فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**وَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟**».

قالَ: نعمْ، لم يَأتِ رَجلٌ قط بمثلِ ما جئتَ بهِ إلَّا عُودِيَ، وإنْ يُدركْني يومُكَ أَنصُرْك نصراً مؤزَّراً.

ثم لم يَنشَبْ وَرَقةُ أنْ توُفِّيَ، **وفَتَرَ الوحيُ**.

- **كم من امرأة صالحة صنعت فرقاً في حياة زوجها!** ودور الزوجة الصالحة أكبر من أن يأتي عليه حرف في هذه المساحة.

تحمل خديجة رضي الله عنها هموم زوجها ومشروعه الكبير وتخرج به تبحث له عن حلول! واشوقاه إلى أمثال هذه الذكريات.

- (ليْتني أكونُ حيّاً إذْ يُخرجُكَ قومُك، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **وَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟** قالَ: نعمْ، لم يَأتِ رَجلٌ قط بمثلِ ما جئتَ بهِ إلَّا عُودِيَ. وفي روايةٍ: أُوذِيَ). هذه هي الرسالة التي تلقاها ﷺ من ورقة! **وهي الرسالة التي ستظل تصحب كلَّ داعية وصاحب فكرة ناهضة وحامل للواء قضية** حتى تقوم الساعة، ألا لا نامت أعين الجبناء!.

ـ **إذا لم تتمكَّن من نصر هذه الدعوة**، والمشـــاركة في مد آثارها في واقعك **فلا تحرم نفســـك نية** ذلـــك الكبير: (وإنْ يُدركْني يومُكَ أَنصُرْك نصراً مؤزَّراً)..

كم من نية صالحـــة أوردت صاحبها الربيع وهو قاعد في بيته! لا تصلح الفرجة لأمثالك، ومن الغبن ألَّا تجد مســـاحة تشارك بها في دينك، فإن لم تستطع إلى ذلك سبيلاً وحالت دونك الظروف فلا أقل من أن تجري مشـــاعر هذا الدين في قلبك، وتأخذ مداها في مشاعرك، كحال أولئك الذين حكى الله تعالى عنهم هذا المعنى الكبير: ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴾ [التوبة: ٩٢]!.



قصة الدعوة في مكة

• بدأت رحلة المشروع بـ(الدعوة السرية):

بدأت في ربوع مكة وتتابعت نتائجها من خلال إسلام خديجة وعلي بن أبي طالب وأبي بكر وآخرين.

- **وكل عمل لا يقوم على خطة لا يصل في النهاية إلى غاية**، والأحلام الكبرى لا تأتي من خلال عمل عشوائي، ومن لم يستوثق من هذه المعاني رمته الأحداث على عارضة الطريق يوماً ما.

- **ليست الدعوة السرية أصلاً في مشروع النهضة، وإنما فرضتها الحاجة** في تلك الحقبة، وهي فترة قصيرة جدّاً بالنسبة لِمَا تلا المشروع بعد ذلك من أحداث، وإذا كان العمل مشروعاً في أصله فلا حرج في اتخاذ الأسباب الكفيلة بنجاحه.

• الدعوة الجهرية:

حين تكونت القاعدة الصلبة التي تجري عليها أحداث المشروع الدعوي في الأرض، **انطلقت الدعوة الجهرية في مكة.**

وبدأت رحلة المشـــروع تمد في واقعها من خلال **البداية بالأقربين** ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

ثم أخذت في التوسع بعد ذلك دون تفريق، استجابة لأمر الله تعالى: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤].

- **وإدارة الأولويات من أعظم أسباب النجاح في المشاريع!** وإذا عرف الإنسان من أين يبدأ! وكيف يبدأ! وصل قبل غيره وهذا ليس في الدعوة فحسب وإنما في كل شيء.

- **من فقهك إذا أردت أن تبني واقعاً لمشروعك: أن تقنع به من حولك حتى يجري له القبول بعد ذلك في كل مكان**.. إن إقناع الكثيرين بفكرتك يحتاج فــي البداية إلى مقتنعين بها، وممتثلين لآثارها، وشـــهود علـــى صحتها وألقهـــا في واقع الحياة، حتى يأتي الناس إليها مذعنين، ولن تجد أقرب ممَّن يصلح للامتثال ممَّن هم حولك، وأعـــرف بك، وأكثر قبولاً لرؤيتك قبل الآخرين، وغالباً من يعرفك يجهلك.

• انطلقت الدعوة الجهرية فــي مكة، ووقف ﷺ أول مرة على الصفا وصاح في القوم: «**يا صَبَاحَاه**»، فاجتمعت قريش، وقـــال ﷺ: «**يا بَنِـــي فُـــلان، يا بَنِـــي عبـــدِ منَـــافٍ، يا بَني عبدِ المُطَّلبِ، أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً تَخْرُجُ بِسَفْحِ هذا**

الجَبَلِ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟» قالوا: ما جربنا عليك كذباً. قال: «**فإنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ**» فقال أبو لهب: تبّاً لك، ألهذا جمعتنا؟! ثم قام، فنزلت سورة المسد.

- **الكبار والقادة وأصحاب المشاريع مسؤولون عن مواجهة الواقع وتحدياته من أجل الأفكار التي يحملونها**، والمعاني التي يسعون لتوسيع آثارها في حياة الناس، ورايات المشاريع تحتاج إلى من يهتف بها أولاً في واقع الناس، ويستقبل من أجلها كلَّ ما يكون.. وكلُّ من يتخلى عن حمل رايات المشاريع فحقه أن يأتي تبعاً في صفوف الجماهير.

- **هذا الدين لا يمكن أن يستوطن الأرض حتى يجد حُمَّالاً له، يدفعون في سبيله كل ما يملكون!** والأحداث شاهدة، وما خلي زمان من صاحب راية! وكم من بقعة في الأرض شاهدة بآثار أصحابها! ومن أدرك موقف نبيه في أول يوم من بداية الدعوة في أرض مكة اشتاق لإعادة التاريخ في واقعه من جديد.

- **المشاريع والأفكار الناهضة والقضايا الكبرى لا تأخذ حقها في واقع ما حتى تجد بطلاً يعيشها أولاً**، وتجري في قلبه ومشاعره، وتصبح جزءاً من حياته، **ثم يقف شجاعاً يصدع بها في العالمين**، كما قال ﷺ: «**فإنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ**».

ـ **لا تستغرب حين يَشْرَق الوجهاء بالدعوة! ويركضون في وجهها عند أول وهلة!** ويمضون أعداء لهـا في الطريق دون هوادة! تلك سـنة الله تعالى فـي الأرض! والذين يعيشـون لذواتهم يخشـون من كل طارق يَذهب بمناصبهم وأمانيهم! وما بين أبي لهب والدعوة حتى يقف لها من أول الطريق؟! ما صنعت له الدعوة حتى يشـاقها من أول خطوة؟! أما شهد هو وقومه حين سـمعوا النبي ﷺ بقولهم: (مَـا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِباً)؟!.. إنهـا المناصـب، وأوهام المسـؤوليات، وزيف المكانة، حين تسـقي أصحابها الكبر فيشرقون بكل مشروع إصلاح. والله المستعان!.

ـ **القدوة القدوة يا أصحاب المشـاريع!** وحديث الأعداء لرسـول الله ﷺ في أول لقاء: (مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِباً) شـاهد صدق تلك القدوة في واقع الأحداث.

لا تورق الفكـرة في حياة صاحبها حتـى تجد في واقعه مرتعاً للحياة! وفرق بين من يحمل مشـروعاً أملاه الواجب وخوف المسؤولية وشغل الفراغ، ومن يحمل مشروعاً يجري في شغاف قلبه، ويستيقظ من أجله مراراً!.

القدوة في حمل المشـروع، والصدق فـي تحمل أثقاله وتبعاته، والنهضة به مهما كانـت الظروف العارضة، والقدوة

في حسن الصلة بالله تعالى حتى يكون صاحبها معلماً للاقتداء، والصدق في الحديث والحركة، والوفاء بالوعد، والالتزام بالوقت.. القدوة في كل شيء.

• **رحلة العداء لرسول الله ﷺ ولصحبه الكرام:**

انطلقت بعد ذلك الإعلان رحلة العداء لرسول الله ﷺ ولصحبه الكرام؛ في صور من: السخرية، والاستهزاء، والازدراء، والتعذيب، كل ذلك محاولة لوقف وافد الأفكار الجديدة.

- **والتغيير لا يصنعه شيء كما تصنعه الأفكار!** وأشق ما على الأعداء حامل فكرة! وألد خصومهم صاحب مشروع! وهل كانت الرسالة إلَّا بضعة أفكار؟!.

• **بدأت قصة التعذيب لصاحب المشروع الأول** وحامل رايته في الواقع؛ مرة بوضع سلى الجزور على رقبته وهو يصلي، وأخرى بليّ ثوبه على عنقه في الطريق، واستمرت بطلب الآيات والمعجزات، وأخيراً عادوا لطريق المفاوضات، وفي النهاية جاء حامل فكرة الإصلاح ليقول لهم: «**أَتَرَوْنَ هَذِهِ الشَّمْسَ؟**» قالوا: نعم. قال: «**فَمَا أنَا بِأَقْدَرَ عَلَى أَنْ أَدَعَ ذَلِكَ مِنْكُمْ عَلَى أَنْ تَسْتَشْعِلوا مِنْهَا شُعْلَةً**».. وما تصنع بجبل لا تحدث فيه معاول الهدم مجرد نقبة؟!..

- **فرق كبير بين فكرة عارضة تقبل نقاشاً ويؤخذ منها بعض ويترك منها بعض آخر حتى تستوطن ولو بعد حين، وبين معتقد ودين هو الحق وما عداه باطل لا قيمة له.**

- **ما أثمن الثبات على المبادئ زمن الحاجة! وما أعز القيم حين الظروف والعقبات الشاقة!** فرق كبير يا حمّال المشاريع بين من يحاول محاولة اليائس، أو يشارك مشاركة الضعيف، ومن يدفع روحه ثمناً لأفكاره الحية في واقع الحياة.

- **حين يئس الأعداء من إيقاف صاحب المشروع عن فكرته، عادوا يحاولون الوقوف دون امتداد الفكرة بين الناس،** وهو الطريق الآخر لإيقاف هذا الدين.. وكل من اعتنق الفكرة، أو أقبل على دار الأرقم، أو رؤي في ساحة تلك الدعوة، اقتيد متهماً باعتناق الأفكار الجديدة؛ فكان آل ياسر، وخبّاب، وبلال... وآخرون كثر هم بداية تلك المحاولات لإيقاف مد تلك الأفكار الوافدة إلى أرض مكة.

- **لم يتخلّف أحد من صحابة رسول الله ﷺ عن المنهج والرسالة والمبدأ والفكرة والقضية،** رغم كل ما وجدوه من لأواء، وتحوّل ذلك العذاب بكل صوره وأشكاله إلى سقاء يمد نماء تلك الأفكار في قلوب أصحابها إلى الموت، والإيمان بالأفكار يصنع هذه الصور ويأتي بمثل هذه الأحداث.

• **لم يكن لدى صاحب المشـــروع وحامل الراية أي وعد عاجل لهؤلاء في الدنيـــا**، وإنما كان مـــرة يذكرهم بتكاليف الطريق: «**قد كانَ مَن قبلَكم يؤخَذُ الرجلُ فيُحفَر له في الأرضِ، ثمَّ يُؤتـــى بالمِنْشَـــارِ، فيُجعَل على رأسِـــهِ فيجعـــلُ فرقَتَينِ، ما يصرِفُه ذلك عن دِيْنِهِ، ويُمشطُ بأمشـــاطِ الحديدِ، ما دون عظمِه مِنْ لَحْمٍ وعَصَبٍ، ما يصرِفُه ذلك عن دِيْنِهِ**».

ويسليهم ثانياً بالنهايات: «**صَبْراً آلَ يَاسِرٍ فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الجَنَّةُ**».

ويعدهم ثالثاً بالنصر القادم ولو بعد حين: «**وَاللهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ، وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**».

- **ليس في دين الله تعالى وعـــد عاجل لأصحابه إلّا ما يلقاه أحدهم من أشواق قلبه**: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، **وطمأنينة روحه**: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وما عدا ذلك أحلام لا يحول دونها سوى الموت!.

- **التغيير صناعة**، وعلى حمّال أفكاره أن يســـتقبلوا كل شـــيء قبل إحلاله في واقع الناس. **والناس أعداء ما جهلوا**،

والجديد لا يمكن أن تبسط له فُرش الإكرام من أول وهلة. وإذا أردت أن تعرف حقيقة ذلك فاقرأ قصص التعذيب التي تلقاها ﷺ وهو يحاول جاهداً في بسط التغيير وفرض الأفكار الوافدة تلك الحقبة من الزمن.

• الهجرة إلى الحبشة:

القادة تثقلهم هموم الأتباع، ويشغلهم واقع المشروع، ويستفرغون جزءاً عريضاً من همومهم لمواجهة الظروف والعقبات العارضة، ولئن استطاعت فئات على الصبر وتحمّل المشاق فإن فئاتٍ أخرى من أصحاب الرسالة والدين لا تستوعب مثل هذه الظروف الشاقة، فتحتاج إلى حلول أخرى تستعين بها على بقاء إيمانها، فجاءت فكرة **الهجرة إلى الحبشة** مرتين:

الأولى: في السنة الخامسة من البعثة، في عدد يصل إلى خمسة عشر ما بين رجل وامرأة.

ثم كانت الهجرة **الثانية** في حدود ثمانين رجلاً وثماني عشرة امرأة.

وحاولت قريش غلق هذا الطريق من بدايته، وحصر المؤمنين في أرض مكة، وإحكام القبضة على النافرين من دين الأجداد، فأرسلوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة

يحملان جملة من الهدايا للنجاشـــي، إغراء بالفكرة، غير أن النجاشي لم يستجب لهم، وعادوا خائبين من الطريق ذاتها.

- **ولن يقف الأعداء مكتوفي الأيدي أمام توسّع الحق،** ونماء مظاهره، إلَّا حين لا يجدون وســيلة تســعفهم تلك اللحظات.

• حصار الشِّعْب:

حاول كفار قريش بعد اليأس من إغراء ملك الحبشة بِرَدِّ المهاجرين إلى **اختلاق فكرة جديدة للتضييق،** فجاءت فكرة **الحصار** وقتل رسول الله ﷺ، فاغتاظ بنو عبد المطلب ودخلوا شِــعْبهم حماية للنبـــي ﷺ، وأجمـــع المشـــركون على ألَّا يجالسوهم ولا يخالطوهم ولا يبايعوهم ولا يدخلوا بيوتهم، حتى يسلِّموا رسول الله ﷺ.

وبقي هذا الحصار ثلاث ســنوات، ثم تــلاوم رجال من قريش على ما حدث، ثم نقضوا الصحيفة وانفك الحصار.

- **لن يقف الباطل أعزلَ أمام الحق وهو يراه يتمدَّد في حياة الناس، ويأخــذ حيِّزاً مــن واقعهم،** ولا تظــن أن كل الناس ســتبتهج بالحق الذي تراه، ولو كان ذلك ممكناً لكانت أيام الرسل أولى بذلك، وهيهات.

ـ تؤدي القبيلة دوراً كبيراً لحظة الأحداث! وكم من كبير بأهله وقومه ومجتمعه! والعاقل من أولى هذه المساحة جهده وبنى من هؤلاء عزّاً وجاهاً لقادم الأيام.

وقد قال القـــوم في أزمـــان المواجهة: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ [هود: ٩١].

وتمنى ذلك الكبير أمنيته العظمى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠].

فشدوا الوثاق يا أيها المصلحون بأهليكم، واستوثقوا من قبائلكم وعشائركم؛ تكبرون بهم مع الأيام، ويقام لكم وبهم ومن خلالهم شأن الحياة بعد توفيق الله تعالى وعونه وسداده، فلا تفوّتوا الفرص وهي قريب.

- **عام الحزن:**

فُكَّ الحصار، وانفرج موقف الكرب من جهة، وجاء قدر الله تعالى بفواجع الأخبار على صاحب المشروع!..

ودّع **أبو طالب** ـ أعظم نصير لنبي الله تعالى ـ الدنيا، في آخر السنة العاشرة من البعثة.

ورحلت في العام ذاته رفيقة الدرب أيام العُســر والشدة؛ **خديجة** رضي الله تعالى عنها.

وبقي إصرار النبيِّ الإنسان على بقاء مشروعه، وهمته في تحقيق أهدافه ولو كان وحيداً في الأرض غريباً في الناس.

- **قد يجد صاحب المشـــروع من يأخذ بيده، ويعينه على بلوغ أهدافه، وكم من كبير ذاع صيته من خلال أعوان الحياة!** وإذا تيسّـــر لإنســـان مثل ذلك كان من توفيق الله تعالى الذي يستحق إدمان شكر.

لكن ليس بالضرورة أن يلقى الإنســـان كل هذا، وكم من إنســـان صعـــد المعالـــي دون أن يلقـــى معيناً يأخـــذ بيده! **والطامحون لا يحدهم شيء**، وكم من عقبات تقاصرت أمام أصحاب الإرادات!.

• **رحلة الطائف:**

يمَّمَ النبيُّ ﷺ وجهه بعد رحيـــل النصراء إلى الطائف؛ باحثاً عن بيئة أخصب للدعوة..

- **وليـــس بالضرورة أن ينجح مشـــروعك فـــي بيئة أو مجتمع بعينه**، وإذا استوفى الإنسان أسباب النجاح ولم يجد قبولاً استقبل بمشـــروعه أرضاً جديدة وأقواماً آخرين، لعل منها يكون بعث الحياة، ولا يســـتعجل صاحب المشروع، وكم من متندّم بعـــد الفراق! وكم من أثـــر لا يُرى إلَّا بعد

الفوات، **ومن لزم طريقاً وأدمن السير في ثناياه عانق النصر ولو بعد حين.** والتجارب تجل عن الوصف.

• لم يجد النبي ﷺ استقبالاً من أهل ثقيف، فالحق الجديد يحتاج إلى زمن طويل حتى يكوّن القناعات.

فعاد ﷺ والهمُّ يملأ قلبه، يبين عن ذلك هذا السؤال العريض من عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أنَّها قالت للنبيِّ ﷺ: هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ من يوم أُحُدٍ؟ قالَ: «**لقد لَقِيتُ من قومِكِ ما لَقِيتُ، وكانَ أشدُّ ما لقيتُ منهُم يومَ العقبةِ؛ إذ عرضْتُ نَفْسِي على ابنِ عبدِ ياليلَ بنِ عبدِ كُلالٍ؛ فلم يُجِبْني إلى ما أَرَدْتُ، فانطلَقْتُ وأنا مهمومٌ على وجهي، فلم أسْتَفِقْ إلَّا وأنا بقَرْنِ الثَّعالِبِ** ـ قرن المنازل: ميقات أهل نجد ـ **فرفَعْتُ رأسي، فإذا أنا بسَحابةٍ قَدْ أظلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ، فإذا فيها جبريلُ، فناداني فقال: إنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قولَ قومِكَ لكَ، وما رَدُّوا عليكَ، وقد بَعَثَ إليكَ مَلَكَ الجبالِ لِتَأْمُرَهُ بما شئتَ فيهم، فناداني مَلَكُ الجبالِ، فَسَلَّمَ عليَّ، ثم قالَ: يا محمدُ! إنْ شئتَ أنْ أُطْبِقَ عليهِم الأخْشَبَيْنِ**» فقالَ النبيُّ ﷺ: «**بَلْ أَرْجُو أن يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أصْلابِهِم مَنْ يعبُدُ اللهَ وحدَهُ لا يُشْرِكُ بِهِ شيئاً**».

ـ ما أطول نَفَسَه ﷺ!.. **وهذه واحدة من صفات أصحاب النهضة في كل مكان وزمان!..** يخرج من مكة طريداً، وييمم

وجهه للطائف ولا يجد مســـتقبلاً، ويعود ليلقى في الطريق من لأواء المعارضين، وحين تلوح فرصة النهاية المبررة على الأقل أمام الجماهير والعامــة، يأبى ﷺ ذلك النصر المؤقّت، ويرفض الفكرة المعروضة، وينتظر أمل النصــر الحقيقي ولو بعد حين: «**بل أرجو أن يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أصْلابِهِم مَنْ يعبُدُ اللهَ وحدَهُ لا يُشْرِكُ بهِ شيئاً**».

- **الرؤيــة تصنع الفــرق! واستشــراف المســتقبل أعظم مواصفات أصحاب المشاريع!** وقَلَّ أن تجد ناجحاً إلَّا ولديه رؤية تدفعه للأحلام.

مشكلة كثير اليوم أنهم لا يملكون رؤية لأنفسهم، فضلاً عن رؤية لمشــاريعهم، ويظل الواحد ينظر إلى يومه، ويكفيه غروب الشمس عن كل شيء.

- **حاجة الأســرة ملحة جدّاً لبناء هذه الرؤية لأبنائهم،** وقُل مثل ذلك حاجة الداعية والخطيب والمصلح والمربي، وحاجة كل صاحب مشروع إلى رؤية يستلهم منها النجاح، ويعيش وهــو يرقب لها النهايات، وكل فكــرة أو قضية أو مشروع لا تجد لها رؤية حافزة لا تبلغ آمالها وإن طالت بها الأيام.

- حين يطول زمن الانتظار فليس ذلك دليلاً على إخفاق، بل فرصة لاستفزاز قدراتنا على اختراع حلول أكثر فاعلية في التأثير على المستهدفين من المشروع.

وكم من فسـيل يطول زمن انتظار ثمرته، فإذا جاء وقته عاش مثمراً طوال العام! والأحلام تثمر على قدر ما تحمل من مشاق.

كم بين قوله ﷺ أول ما وقف على الصفا: «**إِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ**»، وبين قوله هنا: «**بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يعبدُ اللهَ وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً**» من دليل ساطع على أنه ﷺ «**الرَّحْمَةُ المُهْدَاةُ**».

• دخول مكة:

عاد ﷺ من جديد إلى أرض مكة، الأرض التي خرج منها أول وهلة.

عاد ﷺ إلى الأرض ذاتها والمكان ذاته الشاهد في كل شـبر منه على نهضة الأفكار وأثرها في البيئات الجديدة، وشاهد كذلك على العِدَاء الكبير للأفكار الناهضة! ولكنها تجربة أخرى في أرض دارت فيها رحى مرحلة من مراحل الدعوة.

وقف زعماء قريـــش وكبـــار الضلالــة يدفعونه ﷺ عن الدخول، ويحولون بينه وبين المكان الذي يريد أن يصنع فيه أحلام مشروعه الكبير من جديد..

فوقف المطعم بـــن عدي رافضـــاً فكرة قريـــش، ومجيراً للنبي ﷺ، وخرج هو وأبناؤه متقلدي السيوف، حتى طاف ﷺ بالبيت وصلى وأعلن.

- **الجوار والشجاعة تصنع مجداً تليداً لأصحابها**، وكم من كبير على الضلال أغاث الإسلام وصنع له موقعاً في الحياة! وكم من كبير على الإسلام جبن عن خدمة دينه ومنهجه، وكان جزءاً من عقباته في الطريق، والله المستعان!.

وإذا ما رأيت مثل هذه الصورة أدركت كيف يصنع الإنسان لنفسه موقعاً في زمن الزحام، ومَنِ المطعم الذي يتردد اسمه في سيرة رسول الله ﷺ لولا مواقف الشجعان؟!..

• الإسراء والمعراج:

عاد ﷺ إلى مكة بعد رحلة الطائف ولقاء ابنِ عبدِ ياليلَ ابنِ عبدِ كُلالٍ، ومشاهد الرفض في الدخول، وكان أحوج ما يكون إلى بلســـم يداوي هذه الجـــراح ويعيد الفأل من جديد.

وما أعظم لطــف الله تعالى بعباده! **فُرج ســقف بيته ﷺ بمكة، فنزل جبريل، ففرج صدره** ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب مملوءاً حكمة وإيماناً فأفرغه في صدره ثم أطبقه، ثم **أســري به** إلى بيت المقدس على البراق، وصلى هناك بالأنبياء، ثم **عُرج به** إلى السماء، وفرضت عليه الصلاة، كل هذا في ليلة واحدة.

- **لا تنتظر ثواباً عاجلاً، ومكافأة ثمينة في بداية الطريق! إن العطايا لا تتنزّل إلَّا حين يدفع الإنســان في سبيل فكرته ومشروعه وقضيته كل شيء**، ويبذل في سبيله أغلى ما يكون! وحين لا يبقى إلَّا العون والتوفيق يأتي في ساعته لا يتخلّف عن زمان ولا يتأخر عن مكان.

- **إذا أمضَّكَ المشروع، فافرش ســجادتك**، واستقبل في هدأة الليل قِبْلَتَك، ورتّل آي كتاب ربك، وإذا ســجدت فأنخ مطاياك في رحاب ملكوت الله تعالى، وقــد بلغك أن أقرب ما يكون الإنسان إلى ربه وهو ساجد، وإذا رافق ذلك خشوع ورغبة وإلحاح فلا تسل لحظتها عن موارد الخيرات.

- **الأوراد يا أصحاب المشاريع!** وحسن الصلة بالله تعالى، **والخبايا الصالحة؛ مؤذنة بإذن الله تعالى بسيل هادر من موارد التوفيق.** وما استعان صاحب مشروع بمثل هذا الطريق.

- **عودته ﷺ إلى مشروع الدعوة:**

عاد وقد سُلِّي خاطره، وهدأت مشاعره، ولقي من رعاية ربه ما أنساه هموم الدنيا كلها، وكذلك هي سنن الله تعالى لا تتخلف عن أهلها.

عاد ﷺ يجوب الأرض ويدعو الناس: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا: لَا إِلٰه إِلَّا اللهُ؛ تُفْلِحُوا**».

وكان يردِّد في كلِّ لقاء: «**مَنْ يُؤْوِينِي؟ مَنْ يَنْصُرُنِي حتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي وَلَهُ الجَنَّةُ؟**».

- وما رأيت صاحب أحلام قاعد على أريكته يوماً ما! **وصنّاع الحياة يرفضون القعود، ولا يؤمنون بالعقبات، ويمضون في الطريق إلى أفكارهم ومشاريعهم لا يلوون على شيء.**

- **بيعتا العقبة:**

جَرَتْ من خلال أحداث الدعوة التي أعاد النبي ﷺ وهجها في أرض مكة **بيعةُ العقبة الأولى**، بحضور اثني عشر رجلاً من الأنصار، وكان نص البيعة: «**أَلَّا نُشْرِكَ بِاللهِ شَيْئاً، وَلَا نَسْرِقَ، وَلَا نَزْنِيَ، وَلَا نَقْتُلَ أَوْلَادَنَا، وَلَا نَأْتِيَ بِبُهْتَانٍ نَفْتَرِيهِ بَيْنَ أَيْدِينَا وَأَرْجُلِنَا، وَلَا نَعْصِيَهُ فِي مَعْرُوفٍ**».

وعاد أصحاب هذه البيعة إلـى المدينة، وبعث فيهم ﷺ **مصعب بن عمير** يعلمهم الإسلام.

وبدأ الإسلام يأخذ حظه في المدينة، ثم قدم وفد آخر من الأنصار وتمَّتْ **بيعةُ العقبة الثانية**، وبايعهم رسول الله ﷺ: «**أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ**».

- **لا يمكن لمشروع أن يبسط واقعه في مكان وهو لم يأخذ بأسباب التمكين!** وأحداث البيعة دليل متين على قراءة رسول الله ﷺ لواقعه، واستشرافه لمستقبل دعوته، والاستفادة قدر الوسع من الإمكانات والطاقات المتاحة بين يديه في تلك الحقبة من الزمن.

- **الجهد المبذول شيء، والتخطيط شيء آخر، وإذا لم يكن الثاني وعاء حاضناً للأول وإلّا ضاع كل شيء.**

تم من خلال هذا الجهد والعمل بناء اللبنات القادرة على دفع المشروع إلى آماله في قادم الأيام، وهذا القدر الذي تم إنجازه في المشروع هو الممكن في ظل تلك الظروف، والمشروع بحاجة إلى توسّع، ولا بد له من أرض أخرى يستكمل فيها رحلة البناء. ولهذا كله جاءت **الهجرة إلى المدينة**.

• **بَدْءُ الإذن بالهجرة:**

وذلك في شهر ربيع الأول سنة ثلاث عشرة من بعثته ﷺ، وبدأت وفود الصحابة رضـــوان الله تعالى عليهم في الرحيل، ولمّا وصلت تلك الأفواج إلى هناك واستقرت، قرر النبي ﷺ اللحاق بالقوم؛ غير أن الأمر خطير، ولا بد من أخذ الأسباب المؤذنة بالنجاح.







الفصل الثالث

قصة الهجرة النبويّة

١ـ الهجرة إلى المدينة.

٢ـ في ربوع المدينة.



الهجرة إلى المدينة

• مع صاحبه الصِّدِّيق:

خرج النبي ﷺ إلى بيت أبي بكر في نحر الظهيرة، في ساعة لم يكن يأتي فيها ﷺ إلى أحد، وقال لأبي بكر: «**أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ**».. وأخبره أنه أُذن له في الخروج.

ـ والتخطيط أصل كل نجاح، والأعمال العشوائية تموت من أولى المحاولات.

سنة الله تعالى أن الأعمال العشوائية لا تجد لها حظّاً من الحياة، وتظل كثيرة ومقلقة وممضَّة لصاحبها، ولكنها لا تصل به في النهاية إلى شيء، وكل ناجح أراد أن يبلغ هدفه ويصل إلى رؤيته ويكتب حظه من الحياة، فلا بد أن يعمل على التخطيط حتى يضمن به أن يقطع مسافة مناسبة من مشروعه في كل فترة من الفترات.

ـ وإذا تأملت هذه الرحلة رأيت فيها حرصه ﷺ على تهيئة البيئة المناسبة قبل بدء الرحلة، من خلال الفئات

القادرة على توسيع المشـــروع، وبث الروح فيه، كمصعب رضي الله عنه وأرضاه.

- ثم هذا **الخـــروج في نحر الظهيرة** وقت ســـكون الناس بالذات، **ومـــن فقه الرجل وكمال وعيه**: **اتخاذ كافة الأســـباب الكفيلة بنجاح قضيته في الحياة**، وإلَّا ماتت في عرض الطريق.

- ومن ذلك: **اختيار الصاحب القادر على نجاح المشروع**، وما كل صاحب يصلح لحمل الأفكار! وما كل صاحب يضيء عتمة الطريق! وما كل صاحب يبدد ظلام الليل، والله المستعان! وما زال القرآن يذكرنا بهذا القـــرار في كل حين: ﴿إِذْ يَـقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحۡـزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

- **حاجة المصلحين وحُمَّال الأفـــكار إلى أعوان الطريق**، وكم من رأي فردي كان سبباً في إجهاض مشروع صاحبه قبل أوان النضوج! وكم من صاحبٍ كان من أعظم أسباب العون والتوفيق.

من توفيق الله تعالى لإنسان: أن يهبه صاحباً يقوِّي همته، ويؤجِّج أشـــواقه، ويبعث فيه الروح على فكرته ومشـــروعه، ويذكره دائماً أن الحياة صراع، وأعظم صراعها على الإطلاق صراع الأفكار!.

- قال ﷺ لصاحبه تلك اللحظة: «**أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ**».. **فالقضية كبرى، والتفريط في أي جزء منها مؤذن بالخسارة، وإياك أن تكون ساذجاً فالأعداء كثر، وكم من قريب أسقاك سُمّاً في ساعة غفلة، فكن فطناً**، فلست بالخب ولا الخب يخدعك!.

• وجاء الجواب بلسماً: (إنما هم أهلك يا رسول الله) يحملون ذات الهموم التي تحملها، ويجدون ذات المشاعر التي تشعر بها تجاه هذا الدين العظيم.

- **والرجال تصنع واقعها، وتهيِّئ أبناءها لحمل الأفكار الناهضة في الحياة، وتدفع من أجل دينهم ومنهجهم كل شيء.**

- **كم هي حاجة الأب والمربي والواعي إلى حراسة بيته، والعناية بثغره، والتركيز على مساحاته الممكنة قدر الوسع**.. وإن كانت الهداية بيد الله تعالى، ولكن حسبك بذل السبب الممكن والفاعل وليس مجرد الإعذار. وكم من بيوت ترعى هذا الجانب وتشعر به في كل حين! وكم من بيوت حسبها طعام وكساء!.

• قال أبو بكر رضي الله عنه: فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين، فقال ﷺ: «**بالثَّمَن**»!.

- رغم الحاجة والظروف، وكل ذلك ليس لشخصه وإنما لدين ربه تعالى، ولكنه كان حريصاً على رد الجميل: «**بِالثَّمَن**».

- والنفوس الكبيرة تظل مرتفعة، ويظل عطاؤها أكثر من أخذها، وتقبل كل شيء من أعوان الطريق، ولكنها ترده حين تأتي فرصة مناسبة بأكثر، وتستشعر في كل مرة كلمة نبيها ﷺ: «**بِالثَّمَن**»!.

- **في غار ثور:**

بدأت الرحلة في غار بجبل ثور، ومكثا فيه ثلاثة أيام، و**عبد الله بن أبي بكر** يبيت عندهما ويصبح في قريش، وينقل من خلال ما يرى وما يسمع أحداث القوم إليهم، و**عامر بن فهيرة** مولى أبي بكر يرعى حولهما الغنم، ويهب لهما من لبنها زاداً للطريق.

واستأجر ﷺ **دليلاً خرّيتاً يدلهما على الطريق** في صحبة أبي بكر وعامر بن فهيرة، وانطلقت المسيرة في أجواء مشحونة بالترقّب والخوف والقلق.

- **والأسباب جزء من التوكل**، وليس بين الأمرين عراك إلّا عند الجهلاء.

- **من وعيك وكمال توفيقك: أن تعد العدة لكل فكرة أو مشروع أو قضية، وترتب الأسباب الكفيلة بنجاحها،** وألّا تترك الأشياء للفوضى بنية التوكل، فذاك تواكل ممقوت وليس من دين الله تعالى في شيء.

كل مشروع لا يقوم على هذا المعنى الكبير لا تكاد تجد له نهاية، ويموت في بداية الطريق، وهو قرين الفشل والإخفاق، هذه سنة الله تعالى التي لا تقبل التبديل.

• كيد المشركين:

قَلِقَ المشركون من خروج رسول الله ﷺ، وسعوا بكل ما يملكون للحاق به والوقوف أمام أحلامه..

وتمكنوا من إدراك أثره، ووصلوا لذات الغار، ووقفوا عليه، حتى قال أبو بكر: يا نبيَّ الله، لو أن بعضهم طأطأ بصره لرآنا! فقال ﷺ: اسْكُتْ يَا أَبَا بَكْرٍ! «**ما ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا**»!.

وما لهم وله؟! أمَا ضربوه وأدموه وطردوه؟!.. إذاً دعوه يخرج إلى أي مكان ويترك لكم الأرض!..

- **العدو لا ينظر لك أنك تزاحمه في بقعة أو تشاركه في شيء، العدو لا يرضى إلَّا باجتثاثك بالكلية إن استطاع إلى ذلك**، وهو يعلم علم اليقين أن حامل هذه الأفكار لا يمكن

إيقافه إلَّا بالقتل فحسب، ولذلك صنعوا كل شيء في سبيل اللحاق به، وهيهات!..

ـ **العقيدة العقيدة يا أصحاب المنهج! اربطوا قلوبكم بالله تعالى**، استوثقوا من رباط التوكل والصدق واليقين، فكم من عقائد خارت قواها عند حقائق الأشياء! «**ما ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا**».

ـ **مشكلة الأزمات والفتن: أنها تنسي في مرات كثيرة العقائد**، وتتسبب في خلل كثير من المفاهيم، وتعتدي على المبادئ فتنسفها ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، ولا يقف في وجهها العاصف إلَّا العقائد التي هي كالجبال باليقين أو تكاد!.

ـ **يأتي الخذلان في كثير من الأحيان من جعل الأسباب هي الأصل، والعقائد الكبرى فرع**، وكم من نهايات مؤلمة حملها هذا الواقع في الأحداث!.

ـ **ما أحوجنا إلى تجديد الإيمان**، وسترى في أيام الأزمات بالذات كلمة المصالح والمفاسد والأسباب تأخذ حظها على حساب الصدق واليقين والصبر والثبات! وسترى أن صاحب العقيدة والمبدأ يُرمى في أيام الأزمات بالتهور والعجلة وعدم الوعي بكيد الأعداء، والراقد على شحمة أذنه في تلك الأحداث التي تحتاج إلى نضال آخذ بالأسباب وعارف بالزمان! وإذا ثُلِمَتِ العقائد فلا تسل بعد ذلك عن الأعمال.

ـ **الإصرار يصنع العجائـــب، والتحديات رغم الظروف، والخروج رغم الظـــلام؛ كل ذلك يدلك على ســـيما الكبار** وحاملي الأفكار وروّاد النهضة، وقَـــلَّ أن تجد جباناً متردداً خائفاً قلقاً يصلح في شـــأن! عند الأبطال وفي أيام الأزمات يصبح غيـــر الممكن ممكنـــاً، والقلـــوب الجاســـرة تصنع طموحات الكادحين!.

• **شـــعرت قريـــش بالقلق وخافـــت أن يفوتهـــا صاحب العقيدة، فأعلنت عن مكافأة ضخمة لمن يلحق به ويأتي به ولو مقتولاً**.. وكذا الباطل يدفع كل ما يملك من أجل حصار الحق في مـــكان أو زمان! قـــال تعالـــى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٦].

وكان **سراقة** أول الفرحين بتلك المكافأة، ورأى النبيَّ ﷺ مدَّ بصره، ودعا عليه ﷺ حتى غارت قوائم فرسه في الأرض، وفي النهايـــة توقّف عن المطـــاردة وتعهّد بـــدوره في نصرة العقيدة من خلال التعمية على القادمين وراءه.

ـ **وإذا أراد الله تعالى أمراً أمضاه رغم أنوف المعارضين**.. كم من وهـــم كان عارضاً عن بلوغ النهايات! وســـقطت أمام العزيمة الصادقة والرغبة الملحة كل الأقنعة الواهية.

• أم معبد:

مرَّ النبي ﷺ في الطريق على خيمة أم معبد، وشرب عندها اللبن.. وأدرك القرشيون أم معبد وسألوها عن النبي ﷺ، فقالت: ضافني حالب الحائل. وهو ذاته صانع التاريخ، وكاتب الأحداث لا فرق!.

• في المدينة المنورة:

وصل النبي ﷺ المدينة، **واستقبله الأنصار** ينادون: يا محمد يا رسول الله، يا محمد يا رسول الله.. وأشرف بعضهم يقول: جاء نبي الله، جاء نبي الله.

وكان قدومه يوم الاثنين من شهر ربيع الأول آخر النهار من ذلك اليوم، ونزل في بني عمرو بن عوف وبقي أربع عشرة ليلة، وأسس مسجد قباء.

عزم ﷺ على دخول المدينة، وأرسل إلى زعماء بني النجار فجاؤوا متقلدين سيوفهم في عدد يصل إلى خمسمئة رجل، وأقبل يسير حتى نزل في دار أبي أيوب الأنصاري، ثم **أمر ﷺ ببناء المسجد.**

- **والمساجد مدارس العقيدة، وملتقى الكبار، ومنطلق المشاريع العظيمة في التاريخ.** وكم من مسجد صنع الحياة!..

- بُني هذ المسجد من سـعف النخيل، ولكنه كان المدرسة التي خرّجت بعد ذلك أعظم جيل، **وليس حاجتنا اليوم إلى رخام يزيِّنُ جنبات ذلـك البناء، بقدر حاجتنا إلـى إمام يصنع أحلام المترددين إليه**، ويبني منهم طاقات فاعلة في مستقبل الأيام.

- **القضية أكبر من إمامة في وقتهـا، أو درس يأخذ بضع دقائق على أسـماع الحاضرين، بل قدوة تتمثّل ذلك المعنى** التي رددته خديجة حين جاءها الكبير يخشى الموت: (كلا، وَاللهِ لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَداً، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِم، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتُقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ).

ثم تبدأ مسـيرة البناء العقدي والإيماني حتى تعود هذه المساجد إلى زمن تلك الحقبة في زمن الرسالة.

• **انتهت قصة الرحلة، ووصل صاحب الرسـالة والمنهج إلى المدينة**، وباءت محـاولات الباطل - كما هي كل حين - بالفشل والإخفاق، وعاد الباطل رغم كثرته هباءً لا أثر له.

- **ذلك لأن صاحب الفكرة خرج حيـن خرج وهو مؤمن بالوصول**، ومؤمن بالنهاية، وموقن في الوقت ذاته أن كل هذا الذي يصنعه الباطل مجرد هباء، والله المستعان!.



في ربوع المدينة

• بناء المسجد:

بدأت قصة هذه المرحلة الجديدة ببناء المسجد..

- **وهو نواة التغيير الأولى في أي مجتمع**! وما الأمة اليوم أحوج إلى شيء حاجتها إلى إعادة وهج هذا المعنى في نفوس العالمين!.

إن مكاناً يستقبل الناس كل يوم خمس مرات لهو حقيق بالإجلال والاهتمام! وإذا أرادت الأمة اليوم أن ترتّب صفوفها وتعيد بناءها، فعليها أن تدرك دور المسجد، والعمل على إعادة واقعه الأول من جديد.

• المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار:

آخى ﷺ بين المهاجرين والأنصار في نظام يكفل كل أوجه المواساة، للدرجة التي يتوارث فيها المتآخون فيما بينهم، وبقي هذا التوارث حتى ألف المهاجرون أجواء المدينة، وعرفوا مسالك الرزق، وأصابوا من غنائم بدر، ثم توقّف بعد ذلك.

- ومن تأمل واقع المسلمين اليوم في المجتمع الواحد فضلاً عن أقطار العالم الإسلامي أدرك كم هي الحاجة إلى هذا المعنى الكبير!.

- **ما أحوج قُرّاء هذه السيرة العطرة إلى إدراك معنى هذا الدين، وأن كل واحد منا مسؤول عن البناء**، وحاجتنا اليوم إلى الوحدة والاجتماع بعد معاني الإيمان أعظم من كل حاجة.

- **يجب أن تأخذ مفاهيم الوحدة والائتلاف والاجتماع جزءاً كبيراً من هموم أصحاب المشاريع في الواقع**، تجديداً للصورة التي بدأها النبي ﷺ في المدينة، ووصولاً للغاية الكبرى في كتابه تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣].

إن هذه المعاني تغتال اليوم على مستوى الأسرة الواحدة فضلاً عن المجتمع والوطن والأمة، ومن وعي كل مسلم: أن يرمم هذا الجانب في ذاته أولاً، حتى يكون لبنة صالحة للبناء، ومن ثَمَّ تبدأ الخطوات العملية على مستوى الأسر والمجتمعات والوطن الكبير والأمة الواحدة.

- **تحويل القبلة:**

كانت القبلة بيت المقدس طيلة الفترة بمكة، ثم استمرت في المدينة ستة عشر شهراً، ثم تحوّلت بعد ذلك إلى مكة؛ لقول الله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٤٤].

- **الإذن بالجهاد:**

ثم أذن له ﷺ بالجهاد.. أُذن له أولاً في قتال من قاتله، ثم أُمر بقتال المشركين كافة حتى يكون الدين كله لله.

- وفي مراحل الدعوة التي مرت، ومراحل الجهاد التي أقرَّت؛ **دروس من سعة الإسلام ورحمته بالمخالفين، وعنايته بإدارة الأولويات.**

- **لا يمكن لعمل أو مشروع أو قضية أن تأتي كلها دفعة واحدة**، وإنما هي خطوات وخطوات حتى تبلغ النهايات، ومن الضرورة بمكان أن يُرعى جانب الأولويات رعاية خاصة في كل عمل؛ لأنها باب النجاح الكبير في كل شيء، وضياعها تطويل للطريق وذهاب للجهود وشتات للأعمال.

***



الفصل الرابع

قصة الجهاد (الغزوات)

١ ـ أهداف الجهاد وآدابه.

٢ ـ غزوة بدر الكبرى.

٣ ـ غزوة أُحُد.

٤ ـ غزوة بني النضير.

٥ ـ غزوة المريسيع.

٦ ـ غزوة الأحزاب.

٧ ـ غزوة الحديبية.

٨ ـ غزوة خيبر.

٩ ـ غزوة ذات الرقاع.

١٠ ـ عمرة القضية.

١١ ـ غزوة مؤتة.

١٢ ـ غزوة ذات السلاسل.

١٣ ـ فتح مكة.

١٤ ـ غزوة حنين.

١٥ ـ غزوة الطائف.

١٦ ـ غزوة تبوك.





أهداف الجهاد وآدابه

• أهداف الجهاد أهداف سامية عظيمة:

- يأتي على رأس تلك الأهــداف: **إعلاء كلمة الله تعالى، وإقامة الحق والعدل، وجعــل الحاكمية في الأرض لله تعالى،** ولهذا تراه عند ذكره مقروناً بسبيل الله تعالى، تفريقاً بينه وبين قتال الثارات والأطماع الدنيوية.

- ومن تلك الأهداف: **إسعاد البشــرية وهدايتها لدين الله تعالى، ونشر الأمن والرخاء والطمأنينة في أرجاء الأرض.**

- ومن تلك الأهداف: **إزاحة العقبات العارضة في الطريق عن توسّع هذا الدين،** وأخذ حظه من الواقع.

ولم يكن من أهداف الجهاد يوماً إراقة الدماء وقتل الأبرياء وإضاعة الأمن.

• آداب الجهاد:

ومن قرأ **آداب الجهاد** التي كان يؤكّد عليها النبي ﷺ في كل غزوة: «**اغْزُوا بِاسْــمِ اللهِ، وَفِي سَــبِيلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ**

بِاللهِ، اغْزُوا وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَمْثُلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيداً، وَإِذَا أَنْتَ لَقِيتَ عَـدُوَّكَ مِنَ الْمُشْـرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى إِحْدَى ثَلَاثِ خِلَالٍ أَوْ خِصَالٍ، فَأَيَّتُهُنَّ ما أَجَابُوكَ إِلَيْهَا، فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْـلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُـفَّ عَنْهُمْ...» أدرك أهداف الإسـلام من هذه الشـعيرة الكبرى في الإسلام.

- **وثمة قيم ومُثل ومعانٍ كانت تمـلأ تلك الغزوات** التي تنطلق لتحرير هذه المفاهيم في الواقع، لو قرئت قراءة متأنية من عدو لكانت مراسـم هداية يدخل من خلالها الإسـلام، ويأتي إليه طواعية في قادم الأيام.

***



غزوة بدر الكبرى

• بدأت قصة الجهـــاد بغزوة بدر الكبـــرى.. وكانت هذه الغزوة في **السنة الثانية من الهجرة.**

• سيروا وأبشروا:

وأصل الخروج كان في تتبـــع قافلة تجارية لقريش كان على رأسها أبو سفيان.

وبلغ قريشـــاً خروج المســـلمين، فعزمت علـــى الخروج، وحشـــدت له كل ما تملك، فلمّا علم النبي ﷺ بذلك استشار الصحابة في خوض غمار هذه المعركة، فأبدوا استعداداً كبيراً، حتى قال ﷺ: «**سِيرُوا وَأَبْشِـــرُوا، فإِنَّ اللهَ تعالى وَعَدَنِـي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، والله لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إلى مَصَارِعِ القَوْمِ**».

ـ **الشورى منهج، ويجب أن تأخذ حظها من كل قرار يقوم به الإنسان في حياته**؛ سواء على مستواه الشخصي أو على مستوى أسرته، أو على مستوى دائرته التي يعمل بها، كل هؤلاء بحاجة إلى الشورى حتى تصبح جزءاً لا يتجزأ من حياتهم اليومية.

- **من أخطر ما يواجه الإنسان في حياته: القرارات الفردية**، ويظن هؤلاء أنهم يدركون حيثيات القرار وأبعاده، ويتفاجؤون في النهاية أنه فاتهم بفوات الشورى شيء كبير. وكم من قرار لم تخالطه الشورى ذهب بموارد كبيرة من حياة الإنسان!.

- **يملك الكبار طرقاً مبدعة لحفز العاملين معهم**.. خرج الصحابة لغير المعركة، وكان الواقع كما حكاه الله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الأنفال: ٦].

وكان ﷺ يردد: «**سِيْرُوا وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّ اللهَ تَعَالى وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، واللهِ لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إلى مَصَارِعِ القَوْمِ**».

- **وأصحاب المشاريع في أي موقع يملكون رؤية استشرافية خلّاقة في تحقيق آمال من معهم في قادم الأيام، ويعرفون كيف يخلقون أملاً في مضائق الأحداث، ويحوّلون الأزمات إلى مصادر لاستلهام القوى.**

- **الفأل والأمل معانٍ يملكها الكبار: «سِيْرُوا وَأَبْشِرُوا»** في أوقات الأزمات بالذات، ويُحْدِثون من خلالها الفرق الكبير في الأحداث!.

وحاجة العاملين اليوم في المشاريع، فضلاً عن الجماهير، حاجة ملحة إلى أحاديث الفأل والأمل التي تملأ الواقع سروراً، وتعين على تخطي العقبات.

• قُبيل المعركة:

وصل المسلمون إلى بدر ليلة السابع عشر من رمضان، وأخذوا مواقعهم، وكل أخذ حظه من النوم، إلَّا القائد ﷺ استقبل القبلة ويمَّمَ وجهه إلى ربه تعالى وأخذ يدعو حتى أصبح، وكان يردِّد بإلحاح: «**اللهُمَّ إِنَّكَ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْفِئَةَ لَا تُعْبَدْ**».

وفي صباح ذلك اليوم رتّب ﷺ صفوف أصحابه، وعاد يستقبل القبلة ويدعو: «**اللَّهُمَّ آتِنِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ أَنْجِزْ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ لَنْ تُعْبَدَ فِي الْأَرْضِ أَبَداً**».

- وما استجلب التوفيقَ شيءٌ ما استجلبه الدعاء!.

تُرى كم أخذ الدعاء من يوم النبي ﷺ وليلته؟! وكم يأخذ منا في سؤال الله تعالى في الثبات على الحق وهداية الأبناء ونجاح أهدافنا ومشاريعنا في الحياة؟!.

وما أصدق حدس عمر رضي الله تعالى عنه وأرضاه، حين قال: (إني لا أحملُ هَمَّ الإجابة، وإنما أحمل هَمَّ الدعاء).

وكم من مشروع تعثّر، وفي إمكاننا أن ندفع به من خلال الدعاء إلى أرفع المقامات!.

- **نشوب القتال:**

بدأت المعركة.. والقادة يملكون إثارة المواقف في وقتها: «**قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ**».

- **وكُلفة الجهاد وتبعاته تحتاج إلى حوافز تُشْرِق بالقلوب إلى أبعد مدى!** وما أحوجنا اليوم إلى هذا الفن مع نفوسنا أولاً، ومع أبنائنا وأسرنا، ومع العاملين لدينا في مشاريع العمل والبناء؛ حتى نستطيع أن نستفز هذه القدرات إلى أبعد مدى ممكن، ونبلغ من خلالها إلى أهدافنا ومشاريعنا التي نريد.

- **التقى الصفان، وبدأت المعركة** بين أنصار الحق وأنصار الباطل، وجاءت هبات الدعاء والإلحاح في أحلك الأوقات حاجة: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩].

وما هي إلَّا لحظات وتنجلي الأرض عن مصرع سبعين، وأسر سبعين آخرين من أنصار الباطل، ويفر الباقون بأنفسهم، فليس في الأرض سوى الدماء!.

- **كلٌّ يحسن الحديث، وعند الأحداث يذهب كل شيء!** كم من حديث رائج قبيل الملاحم والأحداث! وكم من راية ترفعها الأماني وقت الفراغ، وحين تعصف عواصف الأحداث لا يبقى من ذلك شيء.

- انتهت بدر بعز أصحاب المشـــروع المناضلين من أجل: لا إلٰه إلَّا الله! وتبدّلت أيام الحصار والهجرة والتعذيب إلى أيام نصر وعز وتمكين! **ومن صبر على مضض الأيام في بدايتها، رشف العسل رحيقاً عند النهايات**! وهذا ليس في رحى معارك السيوف، بل حتى في رحى معارك المشاريع والأهداف والرؤى التي يحملها الأفراد والمجتمعات.





غزوة أُحُد

• غزوة أحد تلت بدراً **في العام الثالث من الهجرة..**

• وشاورهم في الأمر:

وشاور ﷺ أصحابه كعادته المطّردة.. واختلف الصحابة رضوان الله تعالى عليهم في الخروج والبقاء، ثم فَصَلَ النبي ﷺ ذلك الخلاف فلبس أدوات الحرب، وقال: «**إِنَّهُ لَيْسَ لِنَبِيٍّ إِذَا لَبِسَ لَأْمَتَهُ أَنْ يَضَعَهَا حَتَّى يُقَاتِلَ**».

- **والكبار يشرّعون الشورى منهجاً، ويملكون في الوقت ذاته القرار النهائي عند الخلاف.**

ثمة كبار إذا بدؤوا الخطوات الأولى في مشروع لا يمكن أن يثنيهم عنها شيء! ولا يصلح للقادة أن يكونوا إمَّعات في زمن الأحداث.. وحين يختلف الناس يحتاجون إلى رجل يقول كلمة الفصل.

- **كما أن الشورى منهج، فَأَخْذُ القرار وقت الحاجة سمة يتحلّى بها الكبار..** وفرق كبير بين من يؤمّن على رأي قومه،

ومن يشعل شعلة يبدد بها الظلام: «**إِنَّهُ لَيْسَ لِنَبِيٍّ إِذَا لَبِسَ لَأْمَتَهُ أَنْ يَضَعَهَا حَتَّى يُقَاتِلَ**».

• **إلى أُحُد:**

خرج الجيش متوجهاً إلى أحد في ألف مقاتل..

- وانسحب في أثناء الطريق المنافق ابن أبيّ وزمرتُه، ولا تفرح بكثرة هؤلاء في صف! **والمحن تكشف سُتُر النفاق، وتُبقي المنافقين عراة!** ولا تنتظر من أيام الرخاء شيئاً، وإذا أردت أن تميّز صفك وتعرف عدوك، فارقب مثل هذه الأزمات تأتيك بأخبار القوم.

- ما أكثرهم - لا كثَّرهم الله تعالى - حولك في أيام الأمن والرخاء والطمأنينة، وكلٌّ يرفع عقيرتَه بالنصر والنجدة، فإذا ما كشفت المحن عن رأسها ولّوا كجرذان يبحثون عن ملاجئ الغارات.

- **لا تبتئس بأيام الفتن والمشكلات، فكم فيها من ضوء بدَّد حالك الظلام!** عاد ابن أبيّ وصحبه لأن الطريق التي سلكوها لا تسلم أصحابها إلَّا في فم الأحداث، ولو وجدوا ملجأ لَوَلَّوا إليه وهم يجمحون.

- **الأهداف والشباب:**

عسكر المسلمون قبيل أحد، واستعرض ﷺ صغار السن ممَّن هم في سن الرابعة عشرة فما دون، وردهم من أثناء الطريق، والأجواء التي يعيشها الإنسان تصنع فروقها في الواقع.

- **ونحن اليوم أحوج ما نكون إلى أن يفقه الشباب أهدافهم في الحياة، ويتعرفوا على مشاريعهم، ويشعروا أنهم الجزء الأكبر من جسد الأمة**، وعليهم تقع تبعات مستقبل الأيام. والأُسَرُ والمؤسسات التعليمية وغيرها مسؤولة عن إعادة وهج الحياة الكريمة إلى نفوس هؤلاء الشباب من جديد.

- **من يعيد لنا صورة شاب يبحث عن فرص العمل في زمن الفوضى؟! مَن مِن شبابنا اليوم يزاحم الكبار على مواقع التأثير؟! من يعيد لنا هموم رايات المشاريع في أوساط الشباب؟!.**

- **يا أيها الأجيال، هذا هو زحام المكارم! وهذه هي هموم فتيان ذلك الماضي التليد، فما راياتكم في المستقبل المنشود؟** من يا ترى يهتف بالأمل من جديد؟ من يحمل لأمته رايات المكارم، ويبعث في واقعها فأل الأمل في زمن الركود؟ ما أحوج الأمة اليوم إلى صاحب مشروع وهدف وفكرة!.

• في ميدان المعركة:

وصل المسلمون إلى ميدان المعركة، ورتّبهم ﷺ، وجعل ظهورهم إلى جبل أحد، وأمر خمسين من الصحابة أن يقفوا على جبل عينين المقابل لأحُد، وأمّر عليهم عبد الله بن جبير، وقال لهم: «**إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ، فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا القَوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُمْ، فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ**».

- وإذا أردت أن تقرأ في مواصفات الكبار، فاقرأ هذه الجملة التي قيلت قبل زمن المعركة، وقبل وقوع الأحداث: «**إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ، فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا القَوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُمْ، فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ**» لتدرك أن صنّاع الرؤية هم القادرون على قراءة مستقبل الأحداث.

- **الأحداث الكبرى قد تبدأ باردة، والكبار يملكون فن إثارة البدايات إلى أبعد مدى!.**

أخذ ﷺ سيفاً، وقال: «**مَنْ يَأْخُذُ مِنِّي هَذا؟**» فبسط الصحابة أيديهم كل يقول: أنا يا رسول الله، ثم قال: «**مَنْ يَأْخُذُهُ بِحَقِّهِ؟**» فأحجم القوم، فقام أبو دجانة وقال: أنا آخذه بحقه!..

- **والقادة يملكــون طاقات عالية جــدّاً وقت الأزمات بالذات**، ويصنعون مــن واقع الخوف فألاً مســتطيلاً في عرض الأحداث. وما أوسع الفرق بين كبير يملك هذا الفن في بداية أزمــة، وآخر يعجــز عن خلق فرصــة في بداية مشروع!..

• بدأت المعركة، ودارت رحى الحرب:

وتحقق للمســلمين النصــر حين كانــت النية صالحة والكلمــة مجتمعة، والقلــوب ميممة مشــاعرها لله تعالى ولدينه ومنهجه.

• بوارق العاجلة ومخالفة القائد:

رأى الرماة ما آلت إليه الأحداث، ورغبت نفوســهم في الحظِّ العاجل قبل الزوال قائلين: الغنيمة الغنيمة!..

وحاول ابن جبير رضي الله عنه تذكيرهم بالوصية، غير أن صورة النصر العاجلــة في أعينهــم أكبر من كل مقولــة، فتركوا الجبل، ونزلوا يستعجلون بوارق العاجلة! وهذه ليست أول الصور فــي تاريخنــا ولا آخرهــا، وما زالت فــي مواقع ومواقــف تبطّئ بنصرنــا وتؤخّر مســيرتنا وتديــل علينا

التبعات! وما نصنع بقدر الله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١٥٢]..

واستطاع خالد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أيام كفره أن يدرك تلك الثغرة ويستثمر تلك النكسة لصالحه، والكبار في كل مكان يديلون النصر لأنفسهم من ثقب إبرة، ويكتبون حظهم من الأحداث بمثل هذه الفرص العارضة.

التفَّ خالد على المسلمين، وبدأت جولة المعركة من جديد، وفقد المسلمون مواقعهم، وودعت جموع منهم الدنيا شهداء في أرض المعركة، وحيل بين المسلمين وقائدهم ﷺ حتى أشيع أنه قتل، وحالُ بعضهم يقول: ماذا بقي بعد رحيل الأنبياء من الأرض؟! **والمعارك مواقف، والأخطاء الكبيرة ثمنها الدماء!..**

- **كبير أثر المعصية على الإنسان!** وعثرات أصحابها في واقع الأحداث مُرّة! مخالفة أمرِ النبي ﷺ في لحظةٍ أحالت رحى المعركة، وقلبت الأحداث، وأسالت دماء، ونكّست راية بعد علوها، والله المستعان!.. **وكم من معصية اليوم حالت دون إنسان ومشروعه**، ووقفت حائلاً دون أهدافه، ويتساءل عند الخذلان: ما باله وعثرات الطريق؟! ونسي أيام الخلوات.

ـ كان الأمس حافـلاً بالنصر في بدر، واليوم مشـحون بأجواء الهزيمة والاختلاف، وهذه سـنن الله تعالى! **ولو كان الحق منصوراً فـي كل حين ما عُرف أنصـاره وحمّال تبعاته وأحداثه..** ومـا أكثر المنطويـن في خيمة النصـر! وما أقل الثابتين زمن الرمضاء والهجير!..

ـ **يخطئ الكبار، ويتوسّع خطؤهم حتى يؤثّر على شأن الأمة، ذلك لأنهم بشـر**، وقد تتكرر هذه الأخطاء ما داموا بشراً تجري عليهم سنن الله تعالى في الأرض: «**كلُّ ابنِ آدَمَ خَطَّاءٌ**»؛ فلا تكثرت كثيراً بما رأيت، وقد جرى لوح القدر بكل ذلك قبل أن يخلق الخلق بخمسين ألف سنة، وأنت تتكلم هنا عن خطأ جيل من أعظم الأجيال في تاريخ الأمة على الإطلاق!..

ـ حين أخذت شائعة مقتل رسـول الله ﷺ في الواقع أخذت حظها مـن نفوس الناس، فتفرقوا وفروا، ولسـان حالهم: وما نصنع بالحياة بعد رحيل الأنبياء؟! وبقيت فئة ثابتة على المبادئ لم تؤثّر فيها الإشاعة بشيء، حتى كان قائلهم يـردِّد: قوموا موتوا على ما مات عليه رسـول الله. **ومتى كان دين الله تعالى وقفـاً على موت نبي أو عالم أو كبير؟!..**

- **النكسات والمصائب تفتح أبواباً من المشكلات،** وتبين لحظتها عمق المعاني والقيم في أفراد المشـــروع.. ولو بقيت عمرك كله في زمن الرخاء ما وصلت إلى شـــيء.. فلا تقلق لحدث يتخلل واقعك أو أسرتك أو مشروعك، فقد يعيد لك ترتيب اللبنات.

- **انتهت أحـــد وهي جولة ضمن جــولات، ولم تنته بعد أحداث النزال!** والكبار يســـتفيدون مـــن كل موقف عارض فكيف بالأحداث الكبار. ولولا التاريخ لَمَا عرفنا الطريق.

❋❋❋



٤
غزوة بني النضير

• كانت غزوة بني النضير **بعد أحد..**

وسببها: محاولة اليهود **قتل رسول الله ﷺ ونقض العهد.**

حاصرهم ﷺ ست ليال، ونزلوا على أن لهم ما حملت إبلهم من غير السلاح ويرحلون من تلك الديار.

- والعهود لها شأن في الإسلام، ومن ينقضها عليه أن يستقبل ملمّات الزمان.



غزوة بني المصطلق (المريسيع)

• كانت غزوة بني المصطلق (المريسيع) **في شعبان سنة خمس للهجرة..**

وسببها: أن الحارث بن ضرار سيد بني المصطلق سار في قومه يريد حرب رسول الله ﷺ..

فخرج إليه رسول الله ﷺ بالمسلمين، وانتهوا إلى المريسيع، وهناك التقى الصفان وانهزم المشركون، وانتهت المعركة في بداياتها.

• النصر والمنافقون:

وما احتمل المنافقون هذا النصر.. فخرج عبد الله بن أبي قائلاً: ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ [المنافقون: ٧].

وَكرر ثانية قائلاً: ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨].

وعاد ثالثة ليلقي بالكبرى: قصة الإفك!..

وأقبل عمر ﵁ قائلاً: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال ﷺ: «**دَعْهُ، لَا يَتَحَدَّثُ النَّـاسُ أَنَّ مُحَمَّداً يَقْتُلُ أَصْحَابَـهُ**».. الناظر مـن الخارج يرى أن هـذا ضمن الصف وعضو في الجماعة المسلمة، وقتله طريق إلى إثارة الشبهات والشكوك، وهذه حقائق تبعثها الأحداث.

• قصة الإفك:

وفي هذه الغزوة وقعت قصـة الإفك التي خاض غمارها المنافق ابن أبيّ أثناء العودة من الغزوة..

وقد خرجت عائشـة من هودجها لقضاء شأن لها، ورُحِّل البعير ظنّاً أنها في الهودج لصغرهـا، فبقيت في مكانها حتى جاء صفوان بن المعطّل ﵁ ثم حملهـا ولحق بها الجيش، فشـاع المنافق بالوقيعة في عرض عائشـة ﵂، وبقي الخبر شائعاً في المدينة شهراً كاملاً..

قالت عائشة ﵂: (فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ، فَاشْتَكَيْتُ حِينَ قَدِمْتُ شَـهْراً، وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ فِي قَوْلِ أَصْحَابِ الإِفْكِ، لَا أَشْـعُرُ بِشَـيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ يَرِيبُنِي فِي وَجَعِي أَنِّـي لَا أَعْرِفُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ اللُّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَشْتَكِي (وفي

روايةٍ: أمْرَض) إِنَّمَا يَدْخُلُ عَلَيّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَيُسَلِّمُ، ثُمَّ يَقُولُ: «كَيْفَ تِيكُمْ؟» ثُمَّ يَنْصَرِفُ..) حتى عَرَفت رضي الله عنها من خلال أم مسطح، فاستأذنت نبيَّ الله ﷺ أن تأتي أبويها، فأذن لها.

بدأ النبيُّ ﷺ يسأل ويستشير في شأن أهله، فاستدعى علي بن أبي طالب، وأسامة بن زيد رضي الله عنهما، وسأل بريرة: «**هَلْ رَأَيْتِ مِنْ شَيْءٍ يَرِيبُكَ؟**» قالت: والذي بعثك بالحق، ما رأيت عليها قط أمراً أغمصه، غير أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن فتأكله.

- **والكبار لا تَسْتَجِرُّهم الأحداث إلى اتخاذ قرارات عاجلة،** وكم من زوج طلّق زوجه من أحاديث عابرة، واكتشف في النهاية بعد ضياع كل شيء أنه قد تعجَّل.

- **لم يتهم ﷺ زوجه ولم يبرِّئها من الخطأ**، وجعل مساحة واسعة قبل أن يعتقد شيئاً أو يتخذ قراراً حيال قضية مجهولة لا يعرف أحداثها ولا أبعادها بعد.. وكثيرة هي الأحداث والأقوال التي نحتاج معها إلى ذات الممارسة في الواقع، ونخفق فيها إلى آذاننا، ويتضح بعد ذلك أن كل ذلك ليس منه شيء.

- **ما أحوجنا إلى التؤدة والتأني، وهذا من الأخلاق التي يحبها الله تعالى، وأسوأ الأخلاق: العجلة، وهي من أخلاق**

الشياطين. ومن فقهك وكمال وعيك: أن كل أمر يعرض عليك فتأنَّ فيه، وامنحه وقتاً، ولا تعجل في باكر الخبر فتندم ولات حين مندم.

• **تأمَّل هـذا النص الذي خاطب فيه ﷺ المسـلمين على** المنبر: «**يا مَعْشَرَ المُسْلِمينَ! مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي عَنْهُ أَذَاهُ في أَهْلِي، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إلَّا خيراً، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلاً مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إلَّا خَيْراً، وَمَا يَدْخُلُ على أَهْلِي إلَّا مَعِـي**» لتقرأ فيه ثقتـه ﷺ في أهله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وهذه الثقة ليسـت مجردة من السؤال والاستفصال والقرائن.

نزل الوحي على رسول الله ﷺ ببراءة زوجه أم المؤمنين من شـائعات النفاق؛ في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١].

وكُشفت ستر النفاق، واتضح كل شيء، وبقيت الأعراض الطاهرة أكثر نزاهـة وقوة رغم الفوضى التـي أحدثها النفاق، وكانت ثمة دروس كبيرة من القصة ليس هذا موضع الاستفاضة فيها، ولكن دروسها لا تفوت على قارئ من أمثالك.

***

٦

غزوة الخندق (الأحزاب)

• كانت غزوة الخندق (الأحزاب) في شـــوال في **السنة الخامسة من الهجرة.**

وفيها: خرج المشـــركون عازمين على حرب المســـلمين، يقودهم أبو سفيان في أربعة آلاف مقاتل ووافتهم بنو سليم وبنو أسد وغطفان وغيرهم، حتى وافى الكفار عشرة آلاف مقاتل.

فسمع النبي ﷺ بمقدمهم، فاستشار الصحابة، وأشار عليه سلمان الفارسي بحفر الخندق حتى يحول بينه وبين الأعداء.

• **حفر الخندق:**

شاور ﷺ أصحابه في طريقة إدارة المعركة.. واستفاد من مشورة سلمان..

- **وينبغي أن يكون القائد فطناً يستثمر كل فرصة،** ويسمع لكل رأي، ويوظف أصحاب المهارات حتى يبلغ مراده في مثل هذه الأحداث.



ـ **وشـــارك ﷺ في حفر الخندق لحظة بلحظة**، وشد على بطنه الحجر من شدة الجوع.. **والكبار قدوات لا تفصلهم عن أحداث العمل والتضحيات حجم مســؤولياتهم**، ولا يكتفون بتوجيه الأمر ويتفرغون للفرجة على الأســرّة، وإنما هم جزء من كل مشروع ولبنة فيه، وإذا رأيت من يصدر الأوامر ويعيش بمنأى عن تكوين القدوة فيها، فتلك جناية لا يغفرها التاريخ، وإخفاق هؤلاء أقرب ما يكون.

• كان ﷺ يحفر الخندق ويبعث مــن خلال العمل صوراً من الفأل والنصر القادم، فيقول ﷺ: «**الله أكبرُ، أُعْطِيْتُ مَفَاتِيحَ الشَّـــامِ، وَاللهِ إنِّي لَأُبْصِــرُ قُصورَهَا الحُمْرَ السَّـــاعَةَ، الله أكبرُ أُعْطِيْتُ مَفَاتِيحَ فَارِس، والله إنِّي لَأُبْصِرُ قَصْرَ المَدَائِنِ الأبيضَ، الله أكبرُ، أُعْطِيْتُ مَفَاتِيحَ اليَمَنِ، والله إنِّي لَأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذِهِ السَّاعَةَ**».

ـ **والكبار في كل مكان يصنعون رؤية بعيدة الأمد، ويبعثون من خلال الأمل حياة حافلة بالنجاح.**

القضية أكبر من مســألة انتصار على أحزاب يتآلبون على حرب الإســلام في ربوع المدينة، وإنما نصــر أمة يأتي على الشام وفارس واليمن في قادم الأيام.

• الحرب خدعة:

وحاصر المشركون المسلمين في المدينة شهراً كاملاً، وفي أثناء الحصار جاء نُعيم بن مسعود رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ قائلاً: إني قد أسلمت، فمرني بما شئت. فقال له: «**إِنَّمَا أَنْتَ رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَخَذِّلْ عَنَّا مَا اسْتَطَعْتَ، فَإِنَّ الحَرْبَ خُدْعَةٌ**».

فذهب إلى بني قريظة وكان عشيراً لهم في الجاهلية، وهم لا يعلمون بإسلامه، قائلاً لهم: لا تقاتلوا مع قريش حتى يعطوكم رهائن. ثم مضى إلى قريش، وقال لهم: إن يهود قد ندموا على ما كان منهم من نقض عهد محمد وأصحابه، وإنهم قد راسلوه أن يأخذوا منكم رهائن، فإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم.. فتخاذل الفريقان..

وأرسل الله تعالى ريحاً على المشركين، وانفضَّ الأحزاب عن المدينة، وانتهى الحصار، كما قال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

• تحفيز في ساعة المحنة:

يحكي حذيفة مواقف تلك الليلة، فيقول:

لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ الْأَحْزَابِ، وَأَخَذَتْنَا رِيحٌ

شَدِيدَةٌ وَقَرٌّ، وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ، جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟**».

فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: «**أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ، جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟**».

فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ مِنَّا، فَقَالَ: «**قُمْ يَا حُذَيْفَةُ، فَأْتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ**».

فَلَمْ أَجِدْ بُدّاً إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ، قَالَ: «**اذْهَبْ فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ**».

ـ ما أبدع هذا العرض في ساعة محنة: «**أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ**»! وما أجمل هذا التحفيز: «**جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»!.

ـ **ما أكثر من يهرعون لحظات الأزمات إلى الأمر، وما أقل ما يدفعون بالحوافز في تلك المهمات!** أما الكبير هنا فله فَنٌّ خاص في التعامل، عرض مغرٍ في ثوب أدب لطيف!.

• حين عاد حذيفة ونـــام، فلمّا أصبح جـــاء القائد يوقظه بنفسه ويداعبه من أثر ما لقي قائلاً: «**قُمْ يَا نَوْمَانُ**» والكبار دواء لكثير من الأحداث.

• وانتهت قصة الأحزاب، وتفرّقت جموع الضلالة، وظل الإسلام كبيراً كما كان، وشوكة في حلوق المناوئين.



غزوة الحديبية

• **الحديبية**: بئـر تقع على بُعد اثنين وعشـرين كيلاً إلى الشمال الغربي من مكة، وتعرف الآن بالشميسي، وهو مكان ظاهر للداخل إلى مكة من جدة أو الخارج من مكة إلى جدة.

وكانت الغزوة في **السنة السادسـة من الهجرة** في مستهل ذي القعدة.

• قصد النبيُّ ﷺ العمرة:

وكان فـي صحبته ﷺ ألـف وخمس مئة مـن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، فلما كان ﷺ بذي الحليفة قلَّد الهدي وأشـعره وأحرم بالعمرة، ولمَّا وصل إلى عُسفان على بعد ثمانين كيلاً من مكة جاءه بشر بن سفيان الخزاعي بخبر قريش، وأنها جمعت له الجموع لصدِّه عن دخول مكة.

وسـار ﷺ حتى وصل الحديبية، ونزل الجيش، ثم بعث إليهم عثمان رضي الله عنه وقال له: «**أَخْبِرْهُـم أَنَّا لَمْ نَأْتِ لِقِتَالٍ، وإِنَّمَا جِئْنَا عُمَّاراً، وادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ**».

• عثمان في مكة:

وصل عثمان إلى قريش، وأبلغهم الخبر.. وسمحت له قريش أن يطوف بالبيت، فأبى أن يسبق رسول الله ﷺ بالطواف.. **وكذلك يصنع الأدب!.**

وأَخَّرَتْه قريش، وقال بعض المسلمين: لعله خلص إلى البيت وطاف به! فقال ﷺ: «**ما أَظُنُّهُ طافَ بِالبيتِ ونَحْنُ مَحْصُورُونَ، ذَاكَ ظَنِّي بِهِ أَلَّا يَطُوفَ حَتَّى نَطُوفَ مَعَهُ**».

- **وحسن الظن من حسن الفأل!** والقائد يعرف أصحابه جيداً، وما كل إنسان يصلح للقضايا الكبرى! والحياة درس، وما صنعه عثمان يليق به، وليس عليه ذلك بغريب!.

• حين طال تأخُّر عثمان، دعا رسول الله ﷺ صحابته للبيعة تحت الشجرة، فبايعوه جميعاً، فلمَّا رأى إقبالهم، قال: «**أنتم خَيْرُ أَهْلِ الأَرْضِ، لَا يَدْخُلُ النَّار إنْ شاءَ اللهُ تعالى أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَهَا**».

- **والنفوس التي يطول انتظارها يصيبها اليأس والقلق، فتحتاج إلى كبير يهب لها من الأمل ما يذهب بسورات الحزن والقلق.**

- **علِّم من حولك الثقة في وعد الله تعالى**، واليقين في نصر أوليائه، ودعك من القلق الذي لا يورث سوى الخذلان!.

- ضرب ﷺ بيده اليمنى على يده اليسرى، قائلاً: «**هَذِهِ لِعُثْمَانَ**».

- كم مِنْ ظَنٍّ كان يحمله هذا التأخر، **ولا تزيد الأحداث الكبار إلَّا طمأنينة وثقة في أصحابهم.**

وعاد أخيراً عثمان وأقفل كلَّ الأبواب المفتوحة لتلك الظنون السَّائبة في الميدان.

- **الحوار والتفاوض:**

بدأ التفاوض، وأرسلت قريش عروة بن مسعود الثقفي أول قادتها لإدارة الحوار، وأرصد له النبيُّ ﷺ صوراً من إجلال صحابته له، فعاد إلى قريش قائلاً: لقد وفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله ما رأيت ملكاً قط يعظِّمه أصحابُه ما يعظِّم أصحابُ محمد محمداً.

ثم أرسلت قريش الحُليس بن علقمة الكناني سيّد الأحابيش، فلمَّا رآه رسول الله ﷺ مقبلاً طلب من أصحابه أن يبعثوا أمامه الإبل المشعرة وأن يلبوا، لأنه من قوم يعظمون الهَدْي، فلمَّا رأى ذلك رجع قائلاً: رأيت البدن قد قُلِّدت وأشعرت، فما أرى أن يصدوا عن البيت.

ثم أرسلت قريش سهيل بن عمرو، فلمَّا رآه ﷺ قال متفائلاً: «**لَقَدْ سَهُلَ أَمْرُكُمْ**»، وقال: «**لَقَدْ أَرَادَ الْقَوْمُ الصُّلْحَ حِينَ بَعَثُوا هَذَا الرَّجُلَ**».

- وكم في هذه الصور من معنى! وكم في هذا الحدس من حديث! **وفرق بين كبير يتقن فنَّ التأثير على كبار الأعداء، وبين من لا يعرف مَنْ بين يديه فضلاً أن يصنع فيهم الحياة!..**

- لا يمكن أن يصبح أبناؤك في البيت، ولا طلابك في محضن تربوي، أو مدرسة، ولا أفرادك في مؤسسة؛ صورة واحدة متشابهة! **وإنَّما كلٌّ له شأنه الخاص وفنه المثير**، والمربي البارع من يتقن هذه المعاني، ويوظفها لبناء مستقبل الأمة الكبير في قادم الأيام.

أكبر مشكلة تواجهها التربية اليوم: أننا نريد الجميع أن يكونوا صورة واحدة في الحفظ والفهم والحركة والنشاط، وحين لا يستوون يصبحون عرضة للتندُّر والتهكُّم.

- **إبرام الصلح:**

بدأ الصلح، فقال رسول الله ﷺ: «**اكْتُبْ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ**» فقال سهيل: أما الرحمن فوالله ما ندري ما هو، ولكن اكتب: باسمك اللهم.

ثم قال ﷺ: «**اكْتُبْ: هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ**» فقال سهيل: فوالله لو كنّا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله.

فقال النبي ﷺ: «**عَلَى أَنْ تُخَلُّوا بيننا وبينَ البيتِ فَنَطوفَ بِهِ**» فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنَّا أُخذنا ضغطة، ولكن ذلك من العام المقبل. فكتب.

فقال سهيل: على ألَّا يأتيك منَّا رجل وإن كان على دينك إلَّا رددته إلينا. فقال المسلمون: سبحان الله! كيف يُرد إلى المشركين، وقد جاء مسلماً؟!.

فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سُهيل في قيوده قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين ظهور المسلمين، فقال سُهيل: هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن ترده إليّ.

فقال النبيُّ ﷺ: «**إنَّا لَمْ نَقْضِ الكتابَ بَعْدُ**» فقال: فوالله لا أصالحك على شيء أبداً.

فقال النبي ﷺ: «**فَأَجِزْهُ لِي**» فقال: ما أنا بمجيزه لك، قال: «**بَلَى فَافْعَلْ**» قال: ما أنا بفاعل. قال مِكرز: بل قد أجزناه لك. فقال أبو جندل: يا معشر المسلمين، أُردُّ إلى المشركين، وقد جئت مسلماً، ألا ترون ما لقيت؟!.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: والله ما شككتُ منذ أسلمت إلَّا يومئذ، فأتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله! ألست نبيَّ الله حقًّا؟ قال: «**بَلَى**» قلت: ألسنا على الحق وعدوّنا على الباطل؟ قال: «**بَلَى**» قلت: عَلَامَ نُعطي الدنية في ديننا إذاً، ونرجع ولم يحكم الله بيننا وبين أعدائنا؟ فقال ﷺ: «**إنِّي رسولُ الله، وَهُوَ نَاصِرِي، ولَسْتُ أَعْصِيه**» قلت: أولستَ كنتَ تحدِّثنا أنَّا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: «**بَلَى، أَفَأَخْبَرْتُكَ أَنَّكَ تَأْتِيه العَامَ؟**» قلت: لا. قال: «**فَإنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ بِهِ**».

قال: فأتيت أبا بكر، فقلت له كما قلت لرسول الله ﷺ، وردّ عليّ كما رد عليّ رسول الله ﷺ سواء، وزاد: فاستمسك بغرزه حتى تموت، فوالله إنَّه لعلى الحقِّ. قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً.

- **القادة وصُناع الحياة وأصحاب الرايات في كل موقع يملكون رؤية استشرافية للمستقبل**، ولا تضيرهم الأحداث العارضة مهما كانت.

كادت مراسم هذه الاتفاقات أن تذهب بلبِّ الملهم الفاروق، ولم تصنع في رسول الله ﷺ شيئاً.

- **وطول النَّفَس زمن الأحداث الكبار من مواصفات القائد الفذ!** وما أحوجنا للصبر على أحداث صغارنا في البيوت،

وزملائنا في المؤسســـات، قبـل الصبر على هذه الأحداث في الأزمات.

- **الأمر بالنحر والحلق:**

تمَّ الصلح، فقال ﷺ للصحابة: «**قُومُوا فَانْحَرُوا، ثُمَّ احْلِقوا**».

فما قام منهم رجل واحد، وكـــرر ذلك ثلاثاً، ولم يتحرَّك منهم أحد.

فدخل ﷺ على أم سلمة فاستشارها فيما لقي، فقالت له: اخرج لا تكلِّم أحداً حتى تنحر بدنك، وتحلق رأسك.

فلمَّا رأى الناس ذلك كادوا يقتتلون على الحلاق.

- **من كان يظنُّ أن يأمر النبيُّ ﷺ فرداً من صحابته ثم يتباطأ عن تنفيذ أمره؟!** فكيف به ﷺ لا يجـــد مجيباً وهم يتجاوزون ألفاً وأربع مئة!.

حين تُصدم النفوس لا تعي بعد ذلك ما يقال لها ولو كان الآمر رســـول الله ﷺ ! وســـعة صدر القائد ومعرفته بأثر هذه الصدمات على النفوس فن آخر يملكه ﷺ .

كان يمكن أن يتحوّل هذا الإصرار على الرفض إلى مشكلة تقضي على كل الجهـــود المبذولة من زمن طويل، غير أنها لم تكن شيئاً في قلبه ﷺ حتى تتحوّل إلى شيء في واقع الدعوة.

- **إعـذار الناس، ومنحهـم فرصة للتغييـر، والصبر على الأحداث العارضة منهم؛ منهج كبير في سـيرته**، ومعلم من معالم التفوّق في حياته ﷺ، وهذا درس كبير يجب أن يمتد في واقع المربي أيّاً كان دوره الذي يقوم به.

وهذه العجلة التي نقع فيهـا خلاف هذا المنهج العريض الذي يشيعه ﷺ في التعامل مع هذه الأحداث.

- **المرأة عون في المُلِمّات**! كان ﷺ بالأمس أحوج ما يكون إلى من يهدئ خوفه من حادثة الغار، فتسـنّمت **خديجة** روح المبادرة، وأعانته ﷺ على تخطي عقبـات الطريق.. وهنا كان رأي **أم سلمة** منقذاً من مشكلة تأبّت على الانقياد.

- **البيوت من هموم أصحابها**، والرجل الذي يشارك زوجه هموم مشـروعه، ويدفع بين يديها بأحلامه، ويجعلها عضواً مشاركاً في أهدافه، تأتي في النهاية معه على ذات الطريق.

ما كان **لخديجة** رضي الله عنها لتقف ولا **لأم سـلمة** أن تشير لولا عيش المشروع من أصله، وهموم الإصلاح في واقعه، ويخطئ كثير من أصحاب المشاريع حين يفصلون همومهم عن هموم بيوتهم، ويريدون في النهاية امرأة على ذات الطريق.



غزوة خيبر

- غزوة خيبر كانت بعد العودة من الحديبية بعشرين ليلة، **في السنة السابعة للهجرة** في شهر محرم.

- **ساء صباح المنذَرين:**

حاصر ﷺ يهود حتى أصابتهم مخمصة شديدة.. ثم صلى الفجر بخيبر، فركب ﷺ وركب صحابتـه، فخرج أهل خيبر بمساحيهم ومكاتلهم، ولا يشعرون، خرجوا لأرضهم، فلمَّا رأوا الجيش قالوا: محمد والله، محمد والخميس.. ثم رجعوا هاربين إلى حصونهم، فقال النبي ﷺ: «**اللهُ أكبرُ، خَرِبَتْ خَيْبَرُ، الله أكبرُ، خَرِبَتْ خَيْبَرُ، إنَّا إذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ، فَسَاءَ صَبَاحُ المُنْذَرِيْنَ**».

فعاد اليهود إلى حصونهم، فتحصّنوا بها، ثم التقى الصفان، وتساقطت الحصون، وقُتِل مَنْ قُتِل من المشركين، وسُبيت النساء والذراري، ثم قسّم ﷺ غنائم خيبر.

• قدوم جعفر:

في هذه الغزوة قدم **جعفر بن أبي طالب** من الحبشة بعد غربة بلغت بضعة عشر عاماً، ليستقبله القائد ﷺ ويرحب به فرحاً، وهو يقول: «**مَا أدْرِي بأيِّهِمَا أنَا أُسَرُّ؛ بِفَتْحِ خَيْبَر، أَمْ بِقُدُومِ جَعْفَر**»!.

ـ **والقلوب التي لا تعرف هتاف هذه المشاعر تقف عاجزة عن التأثير**! فلله ما أروع هذه النفوس التي تعيش مراحل الجهاد وخوض المعارك ومحن الواقع، ولا يشغلها شيء من ذلك عن الترحيب بمن أحبت، وإثارة مشاعر الأشواق لمن رأت بعد طول غياب.

• صاحب الراية:

قال ﷺ ليلة الغزو: «**لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلاً يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ ورَسُولُه**».

وكانت الأفراح في صبح تلك الليلة من نصيب **علي بن أبي طالب** رضي الله عنه وأرضاه.

ـ **وهذه شهادة لا تأتي عرضاً، وإنما شهدت بها الأحداث.** وهو في الوقت ذاته فن كبير يصنع ألقه ﷺ في كل مرة، ولا تأتي هذه المعالم إلَّا من القدوات.

• **غدر اليهود:**

أصيب ﷺ بحادث السم حين أهدت له زينب بنت الحارث اليهودية شاةً مسمومةً، وسألت: أي اللحم أحب إليه؟ فقالوا: الذراع.. فلمَّا انتهش من ذراعها أخبره الذراع بأنه مسموم، فلفظ الأكلة، ثم عرف المرأة التي سمته وجاؤوا بها، فقالت: أردت قتلك، فقال ﷺ: «**ما كانَ اللهُ لِيُسَلِّطَكِ عَلَيَّ**» قالوا: ألا نقتلها؟ قال: «**لا**» ولم يتعرّض لها ولم يعاقبها ﷺ.

- وكذلك الرحماء، والانتصار أكبر من هذه الصور التي يراها الآخرون! **من آمن بقضاء الله تعالى وقدره لم يتأسف على حدوث شيء أو فواته من حياته**، وإنما جرت حياته على الرضا والصبر والاحتساب، ووجد بإذن الله تعالى في حياته برد اليقين!.

• • •



غزوة ذات الرقاع



• وفيها أغار رسول الله ﷺ على قبائل من بني محارب، وهربوا إلى رؤوس الجبال، وحضرت الصلاة فخاف المسلمون أن يغيروا عليهم، فصلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف، وعاد إلى المدينة.







١٠ عمرة القضية

• كانت عمرة القضية في ذي القعدة من **السنة السابعة من الهجرة.**

• **خرج النبي ﷺ قاصداً العمرة** كما اتفق مع قريش في صلح الحديبية، وكان معه قريبٌ من ألفي صحابي، فطاف المسلمون بالكعبة، وفيها نزل قول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧].

وهذه العمرة هي أحلام الأمس! ولعل قلب الخليفة عمر رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ وجد برد اليقين بها بعد طول غياب!.

وكان ﷺ يكتب خطاب الصلح وهو يرى هذه الصورة ليس دونها قتر ولا سحاب، فلم يكترث لأسطر ذلك الصلح التي ظاهرها العذاب وباطنها الرحمة.

- وتشرق الشمس من جديد، ويعود الربيع في الأرض بعد انتشـــار الصحراء، وتأتي البسمة للشــفاهِ بعد طول الأحزان، **ولولا الصبر لمات الإنسان دون أمانيه.**





غزوة مؤتة

• كانت غـــزوة مؤتة في **السـنة الثامنة مــن الهجرة**، بعد عودته ﷺ من عمرة القضاء بأربعة أشهر.

وبعث ﷺ جيشــاً فيه ثلاثـة آلاف مقاتـل إلى الشام، وأمّـر زيـداً عليه، وقــال: «**إِنْ أُصِيبَ زَيْـدٌ فَجَعْفَرٌ، وإِنْ أُصِيْبَ فَعَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَــةَ**» في مقابـل مئتي ألف مقاتل من الروم.

وبـدأت المعركة، ومات القـادة الثلاثة، ثــم أخذ الراية خالد بن الوليد رضي الله عنه وأرضاه، فدافع خالد القوم حتى انحاز بالمسلمين، وانصرف الروم إلى جهة مقابلة.

وتوقفت المعركة، وعاد الجيش إلى المدينة، واستقبلهم الصحابة رضوان الله تعالى عليهم.

• وجيء بأبناء جعفر بن أبي طالب، فداعبهم النبي ﷺ ، وأمر بحلق رؤوســهم، ودعا لهم، وقال لأمهم وهي تذكّر

بيتمهم: «العَيْلَـةَ تَخَافِيـنَ عَلَيْهِـمْ وَأَنا وَلِيُّهُمْ فـي الدُّنيا والآخِرَةِ؟!».

ـ والكبار لا يتركون أتباعهم في أيام الرخاء، فضلاً على أن يتركوهم وقت الحاجة!.





١٢ غزوة ذات السلاسل

• كانت غزوة ذات السلاسل في **السنة الثامنة من الهجرة**، بعد عودة المسلمين من مؤتة.

• حيث جهّز النبيُّ ﷺ جيشاً بقيادة عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل لتأديب قُضاعة التي شاركت في حرب المسلمين مع الروم في مؤتة، ففرت قضاعة من لقاء المسلمين وتفرَّقت جموعها.

١٣

فتح مكة

• كان فتح مكة في السنة الثامنة **للهجرة** لعشر مضين من رمضان.

كان سبب ذلك: أن بني بكر عدت على خزاعة، فبيّتوهم وقتلوا منهم، مع أنهم في حلف وعقد رسول الله ﷺ.

فتجهّز رسول الله ﷺ ولم يعلمهم بوجهته لئلا تستعدَّ قريش، وبلغ عدد جيش المسلمين عشرة آلاف، ولم يتخلّف عنه من المهاجرين والأنصار أحد.

• إنه قد شهد بدراً:

وفي الطريق أرسل **حاطب بن أبي بلتعة** رضي الله عنه وأرضاه كتاباً إلى قريش يخبرها بأن المسلمين يريدون غزوهم، وحملت الكتابَ امرأةٌ، فجاء الوحيُ إلى رسول الله ﷺ، فأرسل عليّاً والزبير والمقداد، فأمسكوا المرأة في روضة خاخ على بُعْدِ اثني عشر كيلاً من المدينة، وهددوها أن يفتشوها إن لم تخرج الكتاب، فسلمته لهم.

فقال ﷺ لحاطب: «**مَا هَذا؟!**» قال: يا رسول الله، لا تَعْجَل عليّ، إني كنت امرأً ملصقاً في قريش ـ أي: لم يكن من قريش ـ وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون أهلهم وأموالهم، فأحببت إذا فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً، يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام.

فقال ﷺ: «**أَمَا إِنَّه قَدْ صَدَقَكُمْ**» فقال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال: «**إِنَّه قَدْ شَهِدَ بَدْراً، وَمَا يُدْريكَ لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَى مَنْ شَهِدَ بَدْراً فقال: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**» فأنزل الله تعالى سورة الممتحنة، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [الممتحنة: ١].

ـ **وأول ما يلتفت الكبار حين الخطأ إلى سجل الحسنات، ثم يذهبون يوازنون**، وإذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث. وكم فاتنا من خير بفوات هذا الفقه!..

• المسير إلى مكة:

واصل المسلمون السير حتى بلغوا **كُديداً**، وهي عين جارية تبعد عن مكة ستة وثمانين كيلاً، وفي الطريق قدم بعض زعماء مكة فأسلموا؛ كأبي سفيان رضي الله عنه.

وفي مر **الظهران** عيَّن النبيُّ ﷺ القادة، وقسّم الجيش، وتجمّعت قريش مع قبائل شتى لمواجهة المسلمين، لكن دون جدوى.

• دخول مكة:

وتمكَّن المسلمون من دخول مكة.. وجاء أبو سفيان، فقال: يا رسول الله، أبيحت خضراء قريش، لا قريش بعد اليوم! فقال ﷺ: **«مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ»**.

- **ومن تربّى على شيء كبر عليه فواته!** ومن عاش كبير قومه عمره كله لا يمكن أن يأتي الإسلام على كل ذلك ويسلبه منه في عشية أو ضحاها!..

- **فقه النفوس مطلب كبير للقادة**، ولن يأتي أصحاب المشاريع على مرادهم حتى يفقهوا هذا المعنى من نفوس الأتباع.

• **دخل ﷺ مكة خاشعاً لربه، شاكراً لأنعمه**.. دخل وهو يقرأ سورة الفتح، وطاف بالكعبة، وعادت رايات الحق في ربوع مكة من جديد.

- **والانتصارات لا تصنع الكبر والاستعلاء الكاذب، وإنما تورث التواضع والحياء من الله تعالى، والاستكثار من الطاعات، وشكر الله تعالى أن وفّق وأعان**، وهذا المعنى الذي

أشير إليه ليس شيئاً خاصّاً بانتصار المعارك ورايات السيوف، وإنما في كل انتصار، حتى في بناء عادة من العادات أو التخلص من عادة أخرى، أو المحافظة على ورد أو تحقيق هدف أو الانتهاء من مشروع.. ويجري في كل شيء.

• **عاد ﷺ إلى ربوع الدار** التي بدأ فيها أول وهلة من عمره قضيته ورسالته!..

خرج منها ﷺ بالأمس طريداً، وقريش تقتفي أثره، وتبذل كل الأموال من أجل الوصول إليه، وعاد إليها كبيراً عزيزاً بالحق الذي يحمله.. ويتوارى أهل مكة بعد أن كانت لهم الراية في الأيام الغابرة!.. ويدور الزمان دورته، ويعود المطارد من بيته بالأمس يحكم الأرض ويقيم فيها دين الله تعالى من جديد.. وما أروع جهاداً يأتي بهذه الخيرات في زمان صاحبه!.

- كم بين أول موقف على الصفا وبين هذه اللحظة التي يدخل فيها ﷺ ! **إنها أحلام الطامحين فحسب! هذه سنن الله تعالى التي لا تتخلّف**؛ من أخذ بها وسار على الطريق واقتفى معالمها بلغ أمانيه ولو بعد حين.

حين تقرأ فتح مكة اقرأه وعينك على الأصنام التي كانت في الكعبة، والشرك الذي يخيّم على كل مساحة من أرض مكة؛ حتى تعرف الفرق، وتتخيّل النهايات بعمق.

ـ كم مرة بدأنا في مشاريعنا وتوقفنا من بداية الطريق، أو بعـــد أن قطعنا فيه شـــوطاً، وضاعت كل تلـــك الجهود التي بذلناها في سبيل الوصول إلى النهايات!.

كم مرة بدأ الواحد مشروعاً مع أسرته، ثم لم يلبث سوى أسبوع أو أسبوعين أو ثلاثة ثم تركها وتخلى عنها!.

كم مرة قررنـــا المحافظة على ورد ثابت فـــي القراءة ثم ما لبثنا أن تخلينا عن الفكرة من أصلها وودعنا القضية!.

ولو أننا أخذنا درساً من فتح مكة، وتخيلنا بدايات الصفا وأول الطريق والعقبات التي كانت ترافق تلك المرحلة لعدنا مستوثقين من كل فكرة أو عادة أو مشروع، والله المستعان!.



١٤

غزوة حنين (أوطاس)

• **حنين وأوطاس**: موضعان بين مكة والطائف، وتسمى: **غزوة هوازن** ـ قبيلة عربية شـــهيرة ـ وهـــي التي حملت راية الشرك من جديد، وجمعت الجموع الغفيرة في حنين بعد شهر من فتح مكـــة، وأخرجوا الرجال والنســـاء والأموال والأبناء حتى لا يفرَّ أحد من أرض المعركة.

وفي مســـاء اليوم العاشـــر من شـــوال وصلوا إلى حنين المعروفة بالشرائع الآن. وكان في معية المسلمين جموع من **مسلمة الفتح** حديثي عهد بالإسلام في عدد كبير، ممَّا كان له أثر في النية والاعتداد بالكثرة.

• **المعركة:**

بدأ القتال.. وتراجعت طلائع هـــوازن في بداية الأمر تاركين بعض الغنائم، وأقبل المسلمون على جمعها ظانين أن هوازن انهزمت، ففاجأتهم هوازن بالســـهام، فانكشف

المســلمون، وفر الطلقاء والأعراب ثم بقية الجيش، ولم يصمد إلّا رسول الله ﷺ وفئة قليلة من المسلمين كان على رأســهم عمه العباس وأبو ســفيان بن الحارث وأبو بكر وعمر وعلي.

ثم أمر ﷺ العباس أن ينادي في الناس للعودة، ثم خصَّ الأنصار وأصحاب الشجرة، ثم خص بني الحارث بالنداء، فتلاحقوا حتى صــاروا ثمانين أو مئة، فعــاد القتال حتى قال ﷺ: «**الآنَ حَمِيَ الوَطِيسُ**».. وأمام هذه العزائم اضطرت هوازن للفرار، وانتهت المعركة لصالح الإسلام وأهله.

- كثيرون أولئك الذين فروا من وسط المعركة وفيهم كبار من أصحاب بيعة الرضوان وأصحاب الشجرة، ولم يعنّفهم ﷺ بكلمة، **وصناع الحياة والقادة لا يستثمرون المواقف في مثل هذه الأخطاء، وإنمــا يثيرون رايات العــز وهتاف الذكريات لتعود إلــى أرض المعركة بعزائم النصر مــن جديد: «يا أَيُّهَا الأَنْصَارُ! يا أَصْحَابَ الشَّــجَرَةِ! يا بَنِي الحَارِثِ!»** نداء يأخذ بالألباب، يســتفز الطاقــات، ويبعثر الهمم، ويلهب مشــاعر الأرواح، فلا تجــد مفرّاً من العــودة إلى حيــاض الحقيقة، وينجلي الغبار.

• **شجاعة النبي ﷺ وثباته:**

وقف ﷺ وحيداً على بغلته، وحين تعبت ترجَّل وتركها، وظلَّ يـــردد في هدير المعركــــة: «**أنا النبيُّ لَا كَــذِب، أَنَا ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِب**».

- ولا شــك أن هذه صناعة الأبطال؛ **يثبتــون في زمن الملمات، ويقدمون دروساً عملية تطبيقية في الثبات!**.

والقيادة ليست هتافاً بكلمة، وإنما ثبات في زمن المحن والأزمات.

- كم مرة فر القائد قبل الجيش، وانهزم الزعيم في بداية المعركة، وتخلَّى الكبير عن هدفه من أول الطريق، واختار الســلم حفاظاً على بقاء روحه، وجبناً من بريق السيوف.. أما هنا في حنين فشـــيء آخر؛ يدع ﷺ بغلته ويترجَّل على قدميه، ويأخذ ســيفه وينادي: «**أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِب، أنا ابنُ عَبْدِ المُطَّلِب**».

١٥

غزوة الطائف

• كانت غزوة الطائف **أثراً من مطاردة المسـلمين لقبائل هوازن** الذين تحصنوا بها بعد الفرار.

• الحصار:

وصل المسلمون الطائف في العشـرين من شوال في السنة الثامنة من الهجرة، وحاصروا هوازن بضع عشرة ليلة، وكان نزول المسـلمين في متناول سـهام ثقيف، فأصيب بعضهم، فتحوَّلوا بعسـكرهم إلى الموضع الذي بُني فيه مسجد عبد الله بن عباس اليوم، وكان القتال بينهم تراشقاً بالسهام.

ولم يكن يقصـد النبيُّ ﷺ بحصـار الطائـف فتحهـا، وإنما أراد كسـر شـوكـة ثقيـف.. ثم دعـا ﷺ إلى فك الحصار، وعـادوا إلى مكـة، ووصلوهـا في الخامس من ذي القعدة.

• فضل الأنصار ومحبته ﷺ لهم:

ثم قسّم ﷺ الغنائم، وآثر في قسمتها الطلقاء الأعراب تأليفاً لقلوبهم لقرب عهدهم بالإسلام، وأثّرت هذه الأعطيات في نفوسهم تأثيراً كبيراً، وأثّرتْ في المقابل سلباً على بعض الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، فوجدوا في أنفسهم من هذه القسمة، حتى قال ﷺ: «**فَوَاللهِ إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ، وَأَدَعُ الرَّجُلَ، وَالَّذِي أَدَعُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الَّذِي أُعْطِي، وَلَكِنْ أُعْطِي أَقْوَاماً لِمَا أَرَى فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الجَزَعِ وَالهَلَعِ، وَأَكِلُ أَقْوَاماً إِلَى مَا جَعَلَ اللهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الغِنَى وَالخَيْرِ**».

ووجدت الأنصار في قلوبها على ذلك؛ حتى إنهم قالوا: يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم! وقال الآخر: لقي رسول الله ﷺ قومه..

فلمّا رأى ﷺ ذلك جمع الأنصار، ثم قال: «**يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ! أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالاً فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي؟ وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللهُ بِي؟ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللهُ بِي؟**».. كُلَّمَا قَالَ شَيْئاً قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ.

قَالَ: «**مَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تُجِيبُوا رَسُولَ اللهِ؟**» قَالَ: كُلَّمَا قَالَ شَيْئاً قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ.

قَالَ: «**لَوْ شِئْتُمْ قُلْتُمْ: جِئْتَنَا كَذَا وَكَذَا، أَلَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَذْهَبُونَ بِالنَّبِيِّ إِلَى رِحَالِكُمْ؟! لَوْلَا الْهِجْرَةُ، لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِياً وَشِعْباً؛ لَسَلَكْتُ وَادِيَ الأَنْصَارِ وَشِعْبَهَا، الأَنْصَارُ شِعَارٌ، وَالنَّاسُ دِثَارٌ، إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ**».

واستطاع بهذه الخطبة أن يعيد وهج الحب في قلوب الأنصار حتى بكوا، وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قسماً وحظاً.

- **وكم تصنع الكلمة في نفوس الناس من أثر!** وكم يأتي الحب على القلوب الحزينة فيسقيها بلسماً من أمل!.

- تشتاق النفوس مهما بلغت إلى شيء من اللّعاع العاجل، وتلك طبيعة الإنسان، وليس من ذوق الكبار ولا من أدبهم أن يتهكّموا بالأخطاء، ويعرّضوا بها في كل موقف، ويعيدوا تكرار الزلات، **وإنما يفسحون للنفوس لتأخذ حظها، ثم يعيدونها بكلمة ثناء للصف من جديد.**

***

١٦

غزوة تبوك

• كانت غزوة تبوك في شـــهر رجب من **العام التاسع من الهجرة** بعد العودة من حصار الطائف بستة أشهر تقريباً.

• تجهيز جيش العسرة:

أراد النبي ﷺ قتال الروم خارج إطـــار الجزيرة العربية.. ونظراً لِبُعد تبوك عن المدينة، فقد حثَّ ﷺ على النفقة، فقال: «**مَنْ جَهَّزَ جَيْشَ العُسْرَةِ؛ فلهُ الجنة**».

- **والعروض المغرية تأتي بالناس تباعاً للأحداث!** سارع الناس في النفقة، وتحمّل عثمان المســؤولية الكبرى، حتى قال ﷺ: «**ما ضَرَّ ابنَ عفَّانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ اليَوْمِ**».

- **والنفوس تحتاج إلى عون يأخــذ بِحُجَزِها حتى تترقّى على ظروفها التي تعيشها**، وتحمل هموم الأمة في مشاعرها.

وليس من الحكمة أن تكل الناس في مثل هذه الأحداث إلى إيمانها، فكم من ضعيف أمام المال! **وإنما رأس الحكمة**

استثمار المواقف، والدفع بالنفوس، وتعليقها بالأهداف الكبرى، حتى تقبل آمنة مطمئنة بوعد النهايات.

- **وكم هي حاجة اليوم إلى صاحب مال يعيد لها ذكريات الراشد عثمان** رضي الله عنه وأرضاه! ما حاجة الأمة حاجتها إلى صاحب مال يجري فيها آثار الخليفة عثمان رضي الله عنه وأرضاه من جديد!.

- **أفعال المنافقين:**

أقبل الصحابة كلٌّ يدلي بسهمه في المشاركة، فجاء الأول بصاع تمر، وجاء الآخر بنصف صاع.

وأطل النفاق برأسه في الأحداث من جديد، فقالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا.. وفي ذلك نزل قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩].

ولأن الأحداث القادمة كاشفة لِمَا يعقبها؛ حاول النفاق وأد الغزوة من أولها، فقال فريق: ﴿لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّ﴾ [التوبة: ٨١]، وقال آخر: ﴿لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ﴾ [التوبة: ٤٢]، وقال فريق ثالث: ﴿ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓ﴾ [التوبة: ٤٩].

ـ ولا غرابة، **فلا يمزّق ستر الكذب والنفاق غير الأحداث!**

وإذا خيّمت عليك غمة فلا تقلق؛ فكم في بواطنها من أثر!.

والأحداث التي تصيبنا بقدر ما تأخذ منا تهبنا القدر ذاته من عوائد الخيرات!.

• النفير:

أعلن النبي ﷺ النفير، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۝ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٨ ـ ٣٩].

واستجاب صحابته ﷺ، ولم يتخلّف إلَّا منافق معلوم النفاق، وثلاثة من الصحابة من غير عذر، وبلغ عدد المشاركين ما يزيد على عشرة آلاف، حتى قال الحافظ: لا يجمعهم كتاب حافظ.

• إلى تبوك:

ولمَّا وصل ﷺ إلى تبوك، أرسل خالد بن الوليد مع عدد من الصحابة إلى دومة الجندل، فأسروا ملكها، وصالحه النبيُّ ﷺ على الجزية.

ولم يقع قتال في هذه الغزوة، بل انتهى المسلمون إلى تبوك ولم يلقوا جموع الروم، وآثر حكام المدن الصلح على الجزية.

ومكث ﷺ عشرين ليلة ثم عاد إلى المدينة.

• إلى المدينة، وقصة الذين خُلِّفوا:

عاد ﷺ إلى المدينة، ثم بدأ بالمسجد كعادته وصلى ركعتين، **وهي سُنة كادت تُنسى في حياة أصحاب المشاريع فضلاً عن العامة.**

وجلس ﷺ للناس، وجاء المتخلفون من المنافقين يعتذرون، فقبل منهم ﷺ وبايعهم، واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله تعالى.

ـ وجاء **كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع،** فأقروا أنه لا عذر لهم في التخلّف، فنهى ﷺ عن كلامهم خمسين ليلة، حتى نزلت توبتهم بعد ذلك من السماء في قول الله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة: ١١٨].

ـ **إن تخلّف الكبار كبير،** وهو مؤذن بانشطار الصف، وتفرّق الكلمة، ولا بد من التعامل معه بما يكفل عدم تكرره فيما بعد!.

- **حين يخطئ الكبار فلا بدَّ أن يذوقوا مسَّ العقوبة! وليس المقصود التشفّي من النفوس المخطئة، بقدر ما هو إعادة تأهيلها للتحليق في عالم الفضيلة من جديد.**

- **أيّاً كانت صور التخلّف فهي ذميمة**، خاصة في حق أصحاب المشاريع، وهي مساهمة في تأخر مشروع الأمة دون وعي، وكم من تخلّف كان سبباً في ضياع مصالح كبرى للأمة! وما حاجة الأمة اليوم إلى شيء حاجتها للرجال، والله المستعان!.

***



الفصل الخامس

قصة الوداع

١ـ عام الوفود.

٢ـ حجة الوداع وخطبتها.

٣ـ جيش أسامة.

٤ـ وداع الدنيا.



عام الوفود

• عام الوفود هو **العام التاسع من الهجرة**؛ حيث ابتدأ وفود القبائل العربية على رسول الله ﷺ معلنة دخولها في الإسلام.

- **والأحداث التي تصنعها المشاريع الكبرى في الواقع تأتي في النهاية بالآخرين!.**

ما أطول المسافة بين أول يوم يقف فيه ﷺ على الصفا وهذه اللحظات التي يتوافد فيها الناس على رسول الله ﷺ !.

فرق كبير بين أيام الرسالة الأولى ورسول الله ﷺ يعرض دين الله تعالى على الناس وهم يفرون منه، واليوم وهم يأتون طائعين مستجيبين!.

- هذه سنن الله تعالى في الأرض؛ **إذا أعطيت مشروعك كل ما تملك، جاءت النهايات تتهادى بين يديك كما تشاء!.**



حجة الوداع وخطبتها

• **في العام العاشـــر حج ﷺ (حجة الــوداع)**.. وخرج من المدينة لخمس بقين من ذي القعدة.. ونزل عليه ﷺ في عرفة قول الله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: ٣].

• **وخطب ﷺ خطبــة بليغــة**؛ قرر فيهــا حرمــة الدماء والأعراض والأموال، ووضع أمر الجاهلية كله، وطالب بتقوى الله تعالى في النســاء خاصة، وأوصى في النهاية بكتاب ربه تعالى، وسنة نبيه ﷺ؛ فإنهما العاصمتان من الضلال.

- **لم يَبْقَ شـــيء ناقص في الدين!** وتمَّ كل شـــيء، وكل ما يستحسنه الناس اليوم إذا لم يكن له أصل في دين الله تعالى فهو باطل لا عبرة به في الأرض.. و«**مـَـنَ أَحْدَثَ فِي دِينِ اللهِ مَا لَيْسَ منه فَهُوَ رَدٌّ!**».

- **كل المصالح التي يتوقعها الناس على مر الزمان إذا لم يكن لها أصل في الوحي فهي مصالح موهومة**، لا قيمة لها في واقع الإســلام، وإياك والظنــون الخربة التي يتنــادى عليها أصحاب الشياطين في مثل زمانك.



جيش أسامة

• عاد ﷺ من حجة الوداع، ومضت بقية ذي الحجة والمحرم وصفر من العام العاشر.

وبدأ ﷺ **بتجهيز جيش إلى الشام، وأمّر عليه أسامة بن زيد بن حارثة** رضي الله عنهما، وعمره آنذاك ثماني عشرة سنة، وأمره أن يتوجه نحو فلسطين.

فتجهّز الناس وفيهم المهاجرون والأنصار، وعلى رأسهم أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عن الجميع..

وطعن في هذه الإمارة أقوام، وأمضاها رسول الله ﷺ قائلاً: «**إِنْ كُنْتُمْ تَطْعَنُوا فِي إِمَارَتِهِ، فَقَدْ طَعَنْتُمْ فِي إِمَارَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلُ، وَايْمُ اللهِ إِنْ كانَ لَخليقاً للإِمَارَةِ، وإِنْ كَان لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِليَّ، وإِنَّ هَذا لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِليَّ بَعْدَه**».. وقطع ﷺ بهذا قول القائلين، وأجهض أفكار المتنازعين.

- وليس بالضرورة أن يكون كبير السن في كل موقف، وكم من صغير **سن عظيم شأن**، والأحداث والمواقف شاهدة!.

- **وهـو درس للقـادة والمربين أن يلتفتوا إلـى الصغار، ويحملوهم مسـؤوليات العمل، ويدربوهم علـى التضحية والبذل والعطـاء**، دعوهم يخطؤون ويتعلمـون، يخفقون ثم يعرفون أسباب تلك الأخطاء، يواجهون الظروف والعقبات ثم يبحثون لها عن حلول.. حينها سـيصلب عود الواحد منهم، ويتحمل مع الزمن تبعات مشروعه الخاص والعام، وسيعرف كيف يبلغ أمانيه، والتجارب هـي المحاضن التي تصنع الرجال وتدفع بهم إلى الحياة.





٤ وداع الدنيا

• مرض النبي ﷺ:

اشتكى ﷺ من المرض الذي ألمَّ به بعد عودته من حجة الوداع بحوالي ثلاثة أشهر، واستغرق مرضه عشرة أيام، وطلب أن يُمرّض في بيت عائشة.

واشتد عليه المرض، فقال للصحابة: «**هَلُمُّوا أَكْتُبْ لَكُمْ كِتاباً لا تَضِلُّوا بَعْدَه**» وكان ذلك يوم الخميس قبل الوفاة بأربعة أيام، فاختلفوا رَضِيَ اللهُ عَنْهُم، فمنهم من أراد أن يحضّر أدوات الكتابة، ومنهم من خشي أن يشق على رسول الله ﷺ، فقال عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (حسبنا كتاب الله تعالى).

وثقل عليه ﷺ المرض حتى منعه من الخروج للصلاة، وقال: «**مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ**».

وحاولت عائشة أن ترده عن ذلك مخافة أن يتشاءم الناس بأبيها، إلّا أنه ﷺ أصر على ذلك حتى كان.

• وفاته ﷺ:

ثم قضى الله تعالى أجلَ نبيه، ورحل يوم الاثنين في الضحى أو عند زوال الشمس في الثالث عشر من ربيع الأول، أو الثاني عشر من ذات الشهر عن عمر يبلغ ثلاثةً وستين عاماً.

- وأخيراً رحل صاحب المشروع ﷺ بعد أن ترك للأمة هذا الدين يفيض على الدنيا من روحه وألقه وجماله حتى أسعد العالمين!.

- رحل ﷺ وقد علّم كل فرد أن النجاح صنو المحاولة، والإصرار يصنع العجائب، والتحديات تكتب حظها من الواقع ولو بعد حين.

- رحل ﷺ بعد أن بيّن لكل إنسان أن الإصرار وعدم اليأس والفأل أساس في كل مشروع، ولبنات نهضة في كل بناء.

- **رحل ﷺ وقد ترك سيرة عريضة** من أقبل عليها بقلبه وفكره ومشاعره، وبذل لها من وقته، وقرأها قراءة باحث عن الحياة؛ وجد فيها كل شيء.



الفصل السادس

قصة الشمائل النبويَّة

١ ـ صفاته الخَلْقية.

٢ ـ أحواله الشخصية وصفاته الخُلُقية.



صفاته الخَلْقية

• لم يكن ﷺ بالطويل البائــن ولا بالقصير، ولا الأبيض الأمهق ولا بالآدم، ولا بالجعد القطط ولا بالسبط، ليس في لحيته ورأسه عشرون شعرة بيضاء.

• وكان ﷺ يخضب شــعره الأبيض في حين، ويتركه في حين آخــر... ولم يأت في حديث صحيح أنــه كان يكتحل، وإنما جاءت وصيته بالكحل في قوله ﷺ: «**اكْتَحِلُوا بِالإِثْمِدِ، فَإِنَّهُ يَجْلُو البَصَرَ، وَيُنْبِتُ الشَّعْرَ**».

- وإذا اكتحلتَ إجلالاً لتوجيهه، ورغبةً في حصول ما ورد، نلت ما قصدته في الدارين.

• وكان ﷺ شثن الكفين والقدمين، طويل المسربة (أي: الشــعر الذي يبدأ من الصدر وينتهي بالسرة)، وكان أشكل العين (أي: طويل شــق العين)، منهوس العقب (أي: قليل لحم العقب).

• **وكان وجهه** ﷺ **كالقمر** أبيض كأنما صيغ من فضة.

• وكان ﷺ مربوعاً، بعيد ما بين المنكبين، تبلغ جمته إلى شحمة أذنيه، وليس في ذلك سُنَّة تُؤْتسى، وإنما عادة كانت تجري منه ﷺ على حالة العرب تلك الحقبة.

• **وكان في ظهره خاتم النبوة** كالغدة الحمراء مثل بيض الحمامة.

- ولولا شرف معرفته ﷺ لَمَا جرى الحبر بذكر صفة خَلْقية!.

- وفقه هذه الصفات نافع في المقارنة حين تراه ﷺ في المنام، وقد قال: «**مَنْ رَآني في المَنامِ فَقدْ رَآني؛ فَإنَّ الشَّيْطَانَ لا يَتَمَثَّلُ بِي**».

- وكم من جميل سارت الركبان بجماله ذهب حطاماً لنار جهنم! وكم من دميم ذميم ما برح الأرض حتى بعث فيها الحياة! وفي الصحيح: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ إِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى أَعْمَالِكُمْ وَقُلُوبِكُمْ**».



أحواله الشخصية وصفاته الخُلُقية

- **طعامه ﷺ:**

كان ﷺ بسيطاً؛ لا يرد موجوداً، ولا يتكلَّف مفقوداً، فما قُرّب إليه شيء من الطيبات إلَّا أكله إلَّا أن تعافه نفسه.

وما عاب طعاماً قط؛ إن اشتهاه أكله، وإلَّا تركه.

وربما ربط على بطنه من الجوع، ويُرى الهلال، والهلال، والهلال؛ ولا يوقد في بيته نار لطعام.

وكانت صفرته على الأرض، ويأكل بأصابعه الثلاث ويلعقها إذا فرغ، مسمياً في أوله حامداً في آخره.

وكان لا يأكل متكئاً، وكان أحب الشراب إليه الحلو البارد.

وما شبع من طعام خبز قط ولا لحم.

ـ **ولو لم يكن في أكله إلَّا هذه الجملة: «لا يرد موجوداً، ولا يتكلَّف مفقوداً، وما عاب طعاماً قط؛ إن اشتهاه أكله، وإلَّا تركه» لكانت كافية عن كل ما يكتب في هذا الشأن..** وكذلك

الكبار لا يهتمون كثيراً بمثل هذه الجوانب، ويمضون لغاياتهم الكبرى، وتظل هذه الصور مجرد وسائل للعيش.

وقد قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: إنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وأيام قلائل. اهـ.

- **وما كثرت الأمراض في مثل زماننا إلَّا من مخالفة هذا الهدي، والبعد عن آثاره** ﷺ، وقد قال ﷺ: «**مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرّاً مِنْ بَطْنٍ. بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ؛ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ**».

• لباسه ﷺ:

وكان ﷺ **يلبس العمامة**، وإذا اعتم أرخى عمامته بين كتفيه، وهذا من العادات التي جرى عليها زمانه ﷺ، وليس سُنَّة تقتدى في مثل زماننا!.

ولبس ﷺ **القميص** وكان أحب الثياب إليه، ولبس الإزار والرداء، وكانت أزرته إلى أنصاف ساقيه وهي أليق، بخلاف القميص فالأصل فيه أن يكون أعلى من الكعبين وهو السُّنَّة؛ لقوله ﷺ: «**ما أسفل من الكعبين ففي النار**».

وكان ﷺ **يلبس خاتماً من فضة**، وكان نقش خاتمه **(محمد رسول الله)**، وإنما لبسه ﷺ للحاجة، فقد كان يختم به على

رسائل الملوك التي يبعثها؛ فمن كان كذلك فهو سُنَّة في حقه، ومن لا فلا.

- **والأصل فيما فعله النبي ﷺ أنه للتشريع، وما فعله ﷺ بمقتضى العادة فالسُّنَّة أن يفعل الإنسان عادة بلده وأهل مجتمعه**، وألّا يتميّز عليهم بنوع من ذلك فيكون أقرب إلى الشهرة المنهي عنها.

• وكان ﷺ إذا اشترى ثوباً، قال: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ كَسَوْتَنِي هَذَا الْقَمِيصَ أَوِ الرِّدَاءَ أَوِ الْعِمَامَةَ، أَسْأَلُكَ خَيْرَهُ وَخَيْرَ مَا صُنِعَ لَهُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِ وَشَرِّ مَا صُنِعَ لَه**».

وكان إذا لبس قميصه بدأ بميامنه، وكان ﷺ يعجبه التيمن في تنعله وترجُّله وطهوره، وهي سُنَّة ينبغي ألّا تفوت عليك في موطن من المواطن، وكم من عائد عليك من آثارها مع الأيام!.

• نومه وقيامه ﷺ:

وكان ينام على الفراش تارة، وعلى الحصير تارة، وعلى السرير تارة.. وكان إذا أوى إلى فراشه للنوم، قال: «**اللهُمَّ باسْمِكَ أَموتُ وأَحيا**».

ويقول: «**الحمدُ للهِ الذي أطعمَنَا وسقانا، وكفانا وآوانا، فكم مِمَّن لا كافيَ لهُ ولا مُؤْويَ**».

وكان ﷺ يجمع بين كفيه ثم ينفث فيهما ويقرأ المعوذات الثلاث، ثم يمسـح ما استطاع بهما من جسـده، يفعل ذلك ثلاث مرات.

وكان ينام على شقه الأيمن، ويضع يده اليمنى تحت خده الأيمن، ثم يقول: «**رَبِّ قِنِي عَذَابَكَ يَوْمَ تَبْعَثُ عِبَادَكَ**».

وإذا اسـتَيْقظَ، قال: «**الحمدُ لله الذي أَحْيانـا بَعْدما أَماتنا وإليه النُّشور**» ثم يتسوّك، وربما قرأ العشر الآيات الأواخر من آل عمران من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... ﴾

[آل عمران: ١٩٠].

- **فتأمل هذه الحيـاة القائمة على ذكـر الله تعالى في كل حركة من حياته** ﷺ! وانظر إلى تعلقه بالسواك وحبه للطهارة، وعلاقته بربه تعالى في كل لحظة من لحظات حياته ﷺ، وإذا كنت على الطريق ذاته وردت على الحياة كما تشاء!.

• وكان ﷺ ينام أول الليل، ويستيقظ آخره، ويحث على نوم القيلولة، فيقول ﷺ: «**قيلوا، فإن الشياطين لا تقيل**».

- **ومن تأمل واقعه اليـوم رأى كثيراً من الاختلاف عن هديه ﷺ في مثل هذا الباب، وترتب على ذلك من الفوضى والضياع في علاقة الإنسـان بربـه وفي عملـه ووظيفته**

ومشروعه ما لا يمكن الحديث عنه في مثل هذه المساحة، والله المستعان!.

• فضيلة التوازن:

وأرشد ﷺ عبد الله بن عمرو إلى **فضيلة التوازن** ورعايتها في حياته، فقال له: «**قُمْ وَنَمْ، وَصُمْ وَأَفْطِرْ، فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقّاً، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقّاً، وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقّاً، وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقّاً**».

- **وإذا اختل هذا التوازن في حياة إنسان اختل كل شيء،** وكم من ناجح في عمله وفكرته ومشروعه على حساب بيته! وكم من ناجح في علاقته بالآخرين ويشار له بالبنان في ذلك وهو مخفق في علاقته بأسرته، ومتخلف في عمله! وكم من متفوّق في عمله وعلى منصات التكريم وما زال من المتأخرين عن صلاته والمتخلفين عن أوقاتها حتى هذا الحين! وكل ذلك أثر من آثار فوات هذا المعنى الجليل، ومن لقي منه حظه لقي من ذلك عاجل البشرى، والله المستعان!.

- **كثرت الملهيات، وتعددت وسائل الشتات، وضاع الإنسان بينها حتى فقد السيطرة** على وقته رأس ماله وأعظم الأسباب في عوائد الخير عليه في مستقبل الأيام.

- **وما حاجة الإنسان إلى شيء حاجته إلى حُسْن صلة بالله تعالى**، وحُسْن إقبال عليه، ووجود ورد ثابت في حياته، وفرض نظام يجعله يجلُّ الأذان، ويعظِّم تكبيرة الإحرام، ويجعل الصف الأول هدفاً ضخماً في حياته، ويجاهد في إدراك تكبيرة الإحرام أربعين صباحاً كما جاء عن نبيك ﷺ.

• كان ﷺ أحسنَ الناس معاملةً:

وباع ﷺ واشترى، وكان شراؤه أكثر من بيعه، وآجر واستأجر، ووكل وتوكل، وأهدى وقبل الهدية وأثاب عليها.

واستدان ﷺ، ورهن من أجل ذلك الدين، واستدان دون رهن.. وكان أحسن الناس معاملة؛ إذا استسلف سلفاً قضى خيراً منه ودعا له قائلاً: «**بارك اللهُ لكَ في أهْلِكَ ومالِكَ، إنَّما جزاءُ السَّلَفِ الحمدُ والأداءُ**».

- وتراه في هذا الباب كغيره رغم مكانته الكبرى ﷺ، وليس ثمة فرق بينه وبين الآخرين، **والمسؤوليات لا تصنع واقعها من خلال مظاهر وأنظمة وأبواب مغلقة يصنع بها القائد هالة حول نفسه، ويرى أنه يكبر بها ومن خلالها على الآخرين**.. كم من قريب بسيط فرض احترامه وأثره في واقعه ومساحته، وصنع مشاهد مبهجة للحياة في العالمين!.

• **يمينه وشفاعته ﷺ:**

وحلف ﷺ في أكثــر من ثمانين موضعــاً، وكانت أيمانه لتقرير قضايا التوحيد والإيمان والمســائل الكبرى، وليست كأيمان كثيرين في مثــل زمانك تجري على حــوادث عادية وأشياء هامشــية وقضايا لا صلة لها بواقع الحياة، ومثل هذه الأيمان ينبغي أن يجل عنها الله تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

وكان ﷺ يســتثني في يمينه تــارة، ويكفّر تــارة أخرى، ويمضي فيهــا ثالثة، وكل هــذه على مصالح كبرى وأشــياء عظيمة، **فانظر أين المصلحة في ذلك وافعلها، فإن ذلك أكمل لدينك، وأقرب للاقتداء بنبيك ﷺ**.

وتشفّع وشــفع إليه ﷺ، ورَدَّتْ بريرةُ شــفاعتَه في قضية مغيث رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُمَا.

- **وإذا كنت متعبّداً لله تعالى بشفاعتك، فلا يضرك من يقبلها أو يتركها، فقد بلغ أجرك**، وجرت لك الحسنات بإذن الله تعالى.

• **مزاحه ﷺ:**

وكان ﷺ يمزح ولا يقول إلّا حقّاً.. داعب أخاً لأنس قائلاً: «**يا أبَا عُمَير، ما فعل النُّغَيْرُ؟**».

وسأله رجل أن يحمله على دابة، فقال ﷺ: «**إِنَّا حَامِلُوكَ على وَلَدِ النَّاقَةِ**» فقال: يا رسول الله، ما أصنع لولد الناقة؟ قال: «**وهل تَلِدُ الإبلُ إلَّا النُّوقَ؟!**».

ولقي زاهراً يبيع متاعاً، فاحتضنه من الخلف وهو لا يراه وهو يقول: «**مَنْ يَشْتَرِي هذا العَبْدَ؟**» فيقول زاهر: إذاً والله تجدني كاسداً. فقال ﷺ: «**لكنَّكَ عِنْدَ اللهِ تعالى لَسْتَ بِكَاسِدٍ**».

وجاءته عجوز فقالت: يا رسول الله، ادعُ الله أن يدخلني الجنة. فقال: «**يا أمَّ فُلانٍ! إنَّ الجَنَّةَ لا تَدْخُلُها عَجُوزٌ**» فولت تبكي، فقال: «**أَخْبِرُوهَا أنَّها لا تَدْخُلُها وَهِيَ عَجُوزٌ**».

- **وهكذا هي النفوس الكبيرة تفيض الأفراح على من حولها وتغيثهم بالحياة!** هذا الذي يمزح مع العجوز، ويداعب الصغار، ويبعث الفرح في نفوس المساكين؛ هو أعظم رسول في العالمين! فماذا صنعتم مع صغاركم وأطفالكم وأزواجكم في البيوت؟! **أغيثوا مَنْ حولكم بالفرح، وجودوا للعالمين بالحياة.**

• كلامه وتبسُّمه ﷺ:

وكان ﷺ يتكلّم بكلام فصل يحفظه من جلس إليه؛ لا يسرد الكلام سرداً، وكان يعيد الكلام ثلاثاً ليعقل عنه.

وكان ﷺ دائم البِشْر؛ فلم يُرَ إلَّا متبسّماً، وكان جرير رضي الله تعالى عنه يقول: ولا رآني ﷺ إلَّا تبسّم.

ـ وما يصنع المتشــائمون وهم يموتون في اليوم الواحد ألف مرة؟! ما أحوجنا للفرح والبشر وغوث الآخرين بالحياة!.

ـ ابتســموا أيها الأحيــاء، أغيثوا من حولكــم بالفرح، وَسِّعوا في مســاحات الربيع، اخرجوا من ظروفكم البائسة، وأحداثكم المؤلمة، وظروفكم القلقة، واصنعوا للفأل واقعاً في مستقبل الايام.

• تواضعه ﷺ :

وكان ﷺ متواضعاً؛ تأتي المرأة إليه فتقول: إن لي بك حاجة. فيقول: «**اجْلِسِي فِي أيِّ طُرُقِ المَدِينَة شِئْتِ أَجْلِسْ إِلَيْكِ**».

وكان يُدعى إلى خبز الشعير والإهالة السنخة ـ أي: الدهن المتغير ـ فيجيب.

وكان يكره قيام الناس له، وكان يقول: «**لَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ كرَاعٌ لَقَبِلْتُ، وَلَوْ دُعِيتُ إِلَيْهِ لَأَجَبْتُ**».

وأجاب ﷺ الصحابي الذي ســأله أن يصلي له في بيته، وأجاب مليكة رضي الله تعالى عنها لمَّا دعته إلى بيتها وصلى بها مع أنس رضي الله تعالى عنه على حصير قد اسودَّ من طول ما لبس.

- **فتأمل هـــذا القرب من الناس، والتبسّـــط إليهم، وإجابة دعوتهم**، على اختــلاف أحوالهم، مع ما ينوء بـــه من أعباء الدعوة والرسالة التي يعيش همومها في كل حين. وإذا كنت صاحب رسالة، وتحمل هموم دينك؛ فمن الواجب عليك أن تتمثل هذه المعاني حتى تغيث بها العالمين من حولك!.

- **تذكّر أن رسالتك ومنهجك ودعوتك ليست حاجتها إلى حديثك عنها، وإنما حاجتها الكبرى إلـــى قدوتك التي تملأ أعين الناظرين** قبـــل أن تنطق بكلمة واحدة في ســـبيل تلك الأماني، وحين تكـــون لمن حولك علـــى منهج نبيك ﷺ؛ ســـترى كيف أن الناس تتهادى إليك كما يتهادى الفراش إلى النور في زمن الظلام!.

• شجاعته ﷺ:

كان ﷺ شجاعاً؛ قَالَ الْبَرَاءُ: (كُنَّا وَاللهِ إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ نَتَّقِي بِهِ، وَإِنَّ الشُّجَاعَ مِنَّا لَلَّذِي يُحَاذِي بِهِ) يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ.

وفي حُنين لمَّا فر القـــوم بقي على بغلتـــه يصارع القوم ويردد: «**أنا النبيُّ لَا كَذِب، أَنا ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِب**».

وفزع أهل المدينة ليلة من وجبة صوت، فهرعوا إليه، فإذا بالنبي ﷺ مقبل من جهة الصوت وهو يقول: «**لَمْ تُرَاعُوا.. لَمْ تُرَاعُوا!**».

ـ **وما تصنع الأمة بالجبان!**.. اعترافك بالحق أولاً، وتمثلك له، وعزك بالرسالة والمنهج من أعظم فصول هذا الخلق الكبير في حياتك، ومن لم يرفع رأسه بهذا الدين في نفسه فهو أجبن من أن يبلِّغ منه شيئاً للعالمين!.

• جوده وكرمه ﷺ:

وكان ﷺ جواداً؛ ما سُئِل شيئاً إلَّا أعطاه ولو كان ثوبه.

قال لأبي ذر ذات مرة: «**ما يسرُّني أنَّ عندي مثلَ أُحُدٍ ذهباً تمضي عليه ثالثةٌ وعندي منه دينارٌ، إلَّا شيئاً أرصدُه لِدَيْنٍ إلَّا أنْ أقولَ به في عبادِ الله هكذا وهكذا**» عن يمينه وشماله.

وصلى مرة وخرج مسرعاً، فقيل له في ذلك، فقال: «**ذكرتُ وأنا في الصَّلاة تِبْراً عندنا، فكرهتُ أن يُمْسِيَ عندنا، فأمرتُ بِقِسْمته**».

ابتاع ﷺ من جابر جملاً، ولمَّا أراد أن يقضيه الثمن، قال: «**خُذْ جَمَلك ودَرَاهِمَكَ، هُوَ لَكَ**». وما يصنع ﷺ بالمال إن لم يكن لمثل هذه المعاني الكبار!..

ـ **ما فرح عاقل بالمال إلَّا حين يعين على تفريج كربة، أو إعانة مسكين، أو غوث محتاج! ما الحياة لولا العطاء**، وما يجدي مال في قلب صاحبه قبل أن ينزل إلى جيبه وثوبه!.

ـ **البخلاء لا يصلحون لراية،** ولا ينفعون في مصيبة، ولا يغيثون محتاج، هذه المعاني تحتاج إلى قدوات كالأنبياء، وإذا لقيت بخيلاً فسلّ يدك منه قبل أن تكون حسيراً في الدارين، وفي الحديث: «**لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ، وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالاً، فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ، وَآنَاءَ النَّهَارِ**».

ـ **المال يصنع فارقاً في واقعه، ولكنه ليس كل شيء، يمكنك أن تجود بقلبك ومشاعرك** ولو لم يكن عندك من المال شيء، ويمكنك أن تجود بجاهك وشفاعتك، ويمكنك أن تجود بابتسامتك وحسن استقبالك، وهذه الأخلاق نوع من الجود تسقي عالماً بلغ به الظمأ كل مبلغ، ولا يحتاجون معه إلى شيء من المال.

• رحمته ورفقه ﷺ:

وكان ﷺ رحيماً رفيقاً؛ يدخل في الصلاة يريد إطالتها، فيقلقه بكاء الصبي، فيعجّل بها لِوَجْدِ أمه عليه.

وكان ﷺ يُقبّل الصبيان، ويمسح على رؤوس الأيتام، وكان يتأخر في السجود في صلاة الجماعة لأن طفلاً ارتحله فيتركه ليقضي حاجته.

وكان ﷺ يحمل الحسن والحسين فيصعد بهما إلى المنبر ويقبلهما، ويقول: «**هَذَانِ رَيْحَانَتَايَ مِنَ الدُّنْيَا**». و«**مَنْ لَا يَرْحَمْ لَا يُرْحَمْ**» كما قال ﷺ.

وحين قال له الرجـــل: ما قَبَّلْتُ أحداً من أبنائي! قال له: «**أَوَ أَمْلِكُ أَنْ نزعَ اللهُ مِنْ قلبكَ الرَّحمةَ!**».

- **وليـــس ثمة تعــارض مع النهضــة الروحيــة والفكرية والمســؤوليات الكبار، وحنــان القلوب وإمــداد المحتاجين بمشاعر الحنان!** بعض هذه المواقف أو كلها تحتاج منك إلى اســتقطاع أوقات طويلة لقراءتها والإمعان فيها، فهي ليست خبراً عارضاً، وإنما هي روح ومنهج ورحمة أراد الله تعالى بها ومن خلالها أن يغيث العالمين!.

- **حلمه وعفوه ﷺ :**

وكان ﷺ حليماً يحب العفو؛ سأله ملك الجبال أن يطبق على أهل مكة الأخشبين، فرفض رغم ما صنعوا فيه.

وعفا عن ابن أُبَيٍّ رغــم كلِّ الأذى الذي ناله منه حتى في عرضــه، بل كفَّنَه فــي ثوبه، وصلى عليــه عند موته، واستغفر له.



وعفا عن قومه حين تمكَّن منهم وانتصر عليهم وخرج عليهم في مكة عزيزاً، فما زاد على أن قال لكل أولئك: «**اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ**»!.

- **والكبار أسمى من الانتصارات الشخصية**، وإذا وجدت في نفسك رغبة في التشفي العاجل لها؛ فأنت تدعو لها وتطلب لها الانتصار، أما من يدعو لله تعالى فهو كالأجير ليس من حقه أن ينتصر لنفسه، أو أن يأخذ لها مقابلاً قبل أيام الجزاء الكبرى في عرصات القيامة.

- **وإذا أردت أن تأخذ منهجاً صالحاً للحياة؛ فخذ منهج نبيك** ﷺ حين انتصر على أعدائه، وتمكّن من القبض عليهم، لم يزد على أن سأل الله تعالى أن يعفو عنهم في كل ما صنعوه قائلاً: «**اللهمَّ اهْدِ قَوْمي، فإنَّهم لا يَعْلَمُون**».



الفصل السابع

قصة تعامله ﷺ مع أصناف البشر

١ - تعامله مع زوجاته.

٢ - تعامله مع أولاده.

٣ - تعامله مع الصغار.

٤ - تعامله مع الأقارب.

٥ - تعامله مع الجيران.

٦ - تعامله مع الخدم.

٧ - تعامله مع الفقراء.

٨ - تعامله مع ذوي الهيئات.

٩ - تعامله مع العصاة.

١٠ - تعامله مع المنافقين.

١١ - تعامله مع كبار السن.

١

تعامله ﷺ مع زوجاته

• زوجاته ﷺ:

تزوج ﷺ إحدى عشــرة زوجة، وهن: خديجة بنت خويلد، وعائشــة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر، وســودة بنت زمعة العامريــة، وزينب بنت جحش الأســدية، وزينــب بنت خزيمة الهلالية، وأم ســلمة هند بنت أمية المخزومية، وأم حبيبة رملة بنت أبي سفيان الأموية، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وجويرية بنت الحارث المصطلقية، وصفية بنت حيي النضرية، وقد مات عن تسع منهن، وماتت زينب بنت خزيمة وخديجة قبله ﷺ.

• الزوج الصالح:

كان ﷺ نموذجاً للزوج الصالح في التعامل مع أزواجه.. فقد كان ﷺ يحرص على مجالســة زوجاته ومؤانســتهن؛ كل يوم يصلِّي الصبح ثم يجلس في مصلاه، ويجلس إليه الناس حتى تطلع الشمس، ثم يدخل على نســائه امرأة امرأة، يسلّم عليهنّ ويدعو لهن، فإذا كان يوم إحداهن كان عندها، ويأتي آخر النهار فيدخل على كل واحدة فيدنو منهن ويباشر من غير جماع.

حتى إنه في ليلة عرسه ﷺ على زينب بنت جحش خرج إلى عائشة، فقال لها: «**السَّلامُ عَلَيْكم أهلَ البيتِ ورَحْمَةُ اللهِ**»، فقالت له: وعليك السلام ورحمة الله، كيف وجدت أهلك بارك الله لك؟.. ثم فعل ذلك مع نسائه كلهن، وعاد إلى مباهج عرسه مشحوناً بمشاعر الرضا والإيناس التي تعيشها أزواجه في تلك البيوت.. وكذلك يصنع الكبار.

- **وحاجة البيوت إلى الإيناس والسؤال والحب من أعظم الحاجات!.**

- **ولم يكن ﷺ يصنع هذا الإيناس الفردي فحسب، وإنما كان يجتمع كل ليلة مع أزواجه في بيت الذي يأتيها، وتتحوّل الحياة إلى لحظات مسائية مبهجة** في الواقع يأتي منها الزوج على أمانيه في هذا الشأن الكبير، وما الحياة إن لم تكن كذلك!.

- **الزوجة سكن وروح وحياة ومعنى وفيض مشاعر**، وكم من امرأة أروت أحلام رجل وصنعت له الحياة!.

- تمرض زوجك أو تغيب، فيظلم بيتك، وتضيق حياتك، وتتكدّر مشاعرك، وتظل غريباً تبحث عن الحياة حتى تعود! ما أجمل المرأة! وما أسعد قربها! وما أبهج مشاعرك بها ومن خلالها! ولو لم يكن من ذلك إلّا قول الحليم الخبير: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٢١] لكان

كافياً، **وإذا أمعنت في قول ربك تعالى:** ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟﴾ **عرفت معنى ذلك الرواء الكبير التي تصنعه امرأة في ربوع بيت من البيوت.**

- وعلى المرأة في المقابل: أن تفقـــه أن هذا الذي يصنع الإيناس في بيت زوجاته ﷺ وإن كان هـــو رجل، ولكنه لها كذلك فـــي مقام القـــدوة، فينبغي لها أن تأتســـي به في تلك المعاني، **وتملأ بيت زوجها حياة وألقاً ومشـــاعر حب..** وفي الحديث: «**خَيْرُكم خَيْرُكم لأهْلِهِ**» رجلاً أو امرأة!.

- **ما أحوج الرجال إلى امرأة تُكِنُّ زوجها بمشاعر الحب، وتـــؤوي إليه بروح التســـامح**، وتروي قلبه بخلـــق الاعتذار، وتجري في حياته ألق الحب حتى يروى!.

• الصحبة في السفر:

وكان ﷺ إذا خرج في سفر أقرع بين نسائه، وإذا خرجت إحداهن معه في ذلك السفر خرج معها في ليل السفر يتحدث إليها ويؤانسها، ويأتي على قلبها بمشاعر الحب والوجدان.

- **وما الزواج لولا هذه المشاعر التي تروي لحظاته!** وما الحب لولا قصة حبيبين في مساحة من الأرض! يا أيها الرجال لا يغلبنَّكم الروتين عـــن مباهج الحـــب! ولا تقتلنَّكم الحياة عن مشـــاهد النعيم! ويا أيتها النساء ابعثوا الحياة، ففي مشاعركن النعيم!.

- **الوفاء للزوجة:**

وكان ﷺ وفيّاً لزوجاته، حتى قالت عائشة رضي الله عنها: ما غِرْتُ على أحد من نساء النبي ما غرت على خديجة وما رأيتها، وكان النبي ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطّعها أعضاء ثم يبعثها في صديقاتها، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلّا خديجة! فيقول: «**إنّها كَانَتْ وكَانَتْ، وكانَ لي مِنْها وَلَدٌ**».

وكان ﷺ يأتي بالشيء فيقول: «**اذْهَبُوا بِهِ إلى فُلانة، فإنَّها كَانَتْ صديقةً لِخَدِيجَةَ، اذْهَبُوا بِهِ إلى بيتِ فُلانة، فإنَّها كَانَتْ تُحِبُّ خَدِيجَةَ**».

واستأذنت ذات مرة هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ، فعرف استئذان خديجة، فارتاع لذلك فقال: «**اللَّهُمَّ هَالة (اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا هَالَة)**» فغضبت عائشة لذلك، فقال لها: «**ما أبْدَلَنِي اللهُ تَعَالَى خيراً منها؛ فَقَدْ آمَنَتْ بِي حينَ كَفَرَ النَّاسُ، وصَدَّقَتْنِي إذْ كَذَّبَني النَّاسُ، وَوَاسَتْني بِمَالِهَا إذْ حَرَمَنِي النَّاسُ، وَرَزَقَنِي اللهُ تَعَالَى وَلَدَها إذْ حَرَمَنِي أولادَ النِّسَاءِ**».

ودخلت عليه عجوز، فأحسن استقبالها ووفادتها وإكرامها، فقالت له عائشة رضي الله عنها: تُقبل على هذه العجوز هذا الإقبال! فقال: «**يَا عَائِشَةُ، إنها كَانَتْ تَأْتِينا زَمَانَ خَدِيجَةَ، وَإنَّ حُسْنَ العَهْدِ مِنَ الإيْمَانِ**».

ـ **فيا لله ما أروع هذه الذكريات! وما ألطف هذه المشاعر! وما أبهج هذه المعاني في واقع زوجين!** وحق هذا الحرف أن يعاد مراراً على قلوب كثيرين.. دلوني على رواية حب كهذه الرواية، وإن كنتُ أعلم أنكم لن تجدوا تفاصيل هذه الرواية بتمامها إلَّا في سيرته ﷺ.

• كان ﷺ يعبّر عن هذه المشاعر الوجدانية تجاه خديجة بقوله: «**إنِّي رُزِقْتُ حُبَّها**».

وسئل ﷺ: مَنْ أحبُّ الناس إليك؟ فقال: «**عائشة**»!.. وكان يدللها فيقول: «**يا عَائِشُ! ويَا حُمَيْرَاءُ**» ويكنيها: «**يا أَمَّ عَبْدِ اللهِ!**»..

ـ **وما أحوج المرأة إلى هذا الإكرام والإجلال من زوجها!** كم من بيوت تشتكي فقد الحب، وتبحث عنه بشوق، وتشتهي كلمة حب تغمره بالحياة! كل واحد من الزوجين مسؤول عن إثارة هذا المعنى الكبير في ربوع بيتــه، والتغلب على حياة الروتين، ومطاردة الملل، وخلق مشاعر البهجة، وإثراء الروح وإغاثتها قبل فوات الحياة منها.

• سيرة عملية في الحب:

تَحَوَّل الحبُّ في بيته ﷺ إلى ســيرة عملية تطبيقية، **فقد كان يُقَبِّل زوجه** وهو خــارج للصلاة، ويقبّلهــا وهو صائم، ويباشرها كذلك وهو صائم، بل بلغ هذا المعنى في حياته ﷺ

إلى أن يتعمد أن يشرب من المكان الذي تشرب منه عائشة، ويأخذ عظم اللحم من يدها ثم يأكل من الموضع الذي أكلت منه.. وإن من الأدب وإجلال العلم ومعرفة قدر القدوات: أن يرتع القلم في رحاب هذا المعنى، ويأخذ حقه من الحياة في رحابه! **يا الله لو أن زوجاً صنع هذه المعاني مع زوجه! ووسّع من هذه الصور في جنبات بيته!.**

وكان ﷺ يتكئ في حجرها يقـرأ القرآن، وربما نام على فخذها، وربما نام معها في لحاف واحد وهي حائض..

وكان ﷺ يغتسل مع زوجه في إناء واحد، ويمزحان في ذات الوقت، فتقول: دع لي، دع لي. ويقول: دعي لي، دعي لي. **وإن بيتاً يخلق جزءاً من هذه المعاني في واقعه ليستعجل شيئاً من نعيم الجنان!.**

• الصحبة في الولائم:

وكان ﷺ يصحب زوجاته معه للولائم، فقد صنع جار فارسيٌ للنبيِّ ﷺ مرقاً، ثم جاء يدعوه، فقال: «وَهَذِهِ» لعائشة! فقال: لا، فعاد يدعوه، فقال: «وَهَذِهِ» فقال: لا، ثم عاد يدعوه، فقال: «وَهَذِهِ» فقال: نعم. فقاما يتدافعان حتى أتيا منزله.

- كم من زواج بدأ بالحب وبنى صرحه على معانيه، ثم اغتاله الروتين حتى لم يُبْقِ منه شيئاً حيّاً.

ترى في بداية الزواج من قصص الحب والغرام والعشق والبذل والتضحية وإسعاد كل طرف لصاحبه فوق تخيلك، ثم ما تلبث الأيام حتى يموت كل شيء.

• الاحتفاء بالزوجة:

وإذا زارته ﷺ إحداهن، احتفى بها احتفاءً رائعاً، وقد زارته ذات مرة صفية رَضِيَ اللهُ عَنْهَا في معتكفه ليلاً، فتحدثا ثم حين أرادت العودة، قام مواسياً مودِّعاً مصاحباً لها في الطريق، راعياً لمشاعر الحب التي خطت بها إلى مصلاه.

• رعاية مشاعرهن:

وكان ﷺ يرعى مشاعر أزواجه، ويطيّب قلوبهن، قال مرة لعائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «**إِنِّي لَأَعْلَمُ إِذَا كُنْتِ عَنِّي رَاضِيَةً، وَإِذَا كُنْتِ عَلَيَّ غَضْبَى**» قالت: ومن أين ذلك؟ قال: «**إِذَا كُنْتِ عَنِّي رَاضِيةً قُلْتِ: لَا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ، وَإِذَا كُنْتِ غَضْبَى قُلْتِ: لا وَرَبِّ إِبْرَاهِيمَ**» قالت رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أجل يا رسول الله، ما أهجر إلَّا اسمك.

ولما قالت حفصة لصفية بنت حيي رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: إنك ابنة يهودي.. فبكت لقولها ذلك، دخل عليها النبي ﷺ وهي تبكي، فقال: «**ما يُبْكِيْكِ؟**» فقالت: قالت لي حفصة: إني بنت يهودي. فقال

النبي ﷺ: «**إِنَّكِ لَابْنَةُ نبيٍّ، وإنَّ عمَّكِ لَنَبِيٌّ، وَإِنَّكِ لَتَحْتَ نَبِيٍّ، فَفِيمَ تَفْخَرُ عَلَيْكِ؟!**».

ولما فجأ عائشة رضي الله عنها الحيض في قصة السفر إلى مكة، ولم تتمكن من العمرة، طيّب خاطرها، ورعى مشاعرها، وأمر أخاها عبد الرحمن أن يعمرها من التنعيم.

وإذا مرضت إحداهن وقف معها لحظات المرض، وحاول جاهداً أن يمسح تلك المعاناة التي تلم بها، وقد كان يأتي إليها في مرضها فيمسح بيده على موضع الألم ويدعو لها.

ولمّا بَرَكَ جمل صفية رضي الله عنها في الطريق في رحلة الحج، وبكت لتأخُّرها؛ جاء إليها ﷺ فجعل يمسح دموعها بيده.

• المساعدة في شؤون البيت:

وكان ﷺ يساعدهن في شؤون البيت.. فقد سئلت عائشة رضي الله عنها: ما كان يصنع رسول الله ﷺ في بيته؟ فقالت رضي الله عنها: كان يكون في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة. وكان يخيط ثوبه، ويخصف نعله، ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم. ويقول: «**خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لأَهْلِي**».

• كلمة جامعة في تعامله ﷺ مع زوجاته:

وسجّل جابر بن عبد الله رضي الله عنه كلمة جامعة في تعامله ﷺ مع زوجه، فقال: **وكان ﷺ رجلاً سهلاً؛ إذا هويت شيئاً تابعها عليه.**

وحق هذه الكلمة أن تدوّن بمداد من ذهب!.

ومن ذلك: أنه كان يفسح لأهله في المتعة المباحة، ويأذن بذلك، رأى الحبشة يلعبون ذات يوم، فقال: «**يا عَائِشَةُ، تَعَالَي فَانْظُرِي**» فجئت فوضعت لحيي على منكب رسول الله، فجعلت أنظر إليهم وهو يقول: «**أَمَا شَبِعْتِ؟ أَمَا شَبِعْتِ؟**» فجعلْتُ أقول: لا، لأنظر منزلتي عنده.

وكان يرخّص لزوجاته ﷺ في سماع الغناء المباح في الأعياد والأعراس، قالت عائشة رضي الله عنها: دخل رسول الله ﷺ وعندي جاريتان تغنيان بغناء بعاث ـ وهو يوم جرى فيه قتال بين الأوس والخزرج ـ فاضطجع على الفراش، وحوَّل وجهه، فدخل أبو بكر رضي الله عنه فانتهرني، فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال: «**دَعْهُمَا**».

وكان ﷺ يُدخل إلى عائشة جواريَ يلعبن معها مراعاة لصغرها وتلبية لمشاعرها.

ودخل عليها حيـن قدومه من غزوة تبـوك أو خيبر وفي سـهوتها سـتر، فهبت ريح فكشفت ناحية السـتر عن بنات لعائشـة تلعب بهن، فقال: «**مَا هَذَا يَا عَائِشَةُ؟**» قالت: بناتي. ورأى بينهن فرسـاً له جناحان من رقاع، فقال: «**مَا هَذَا الَّذِي أَرَى وَسَـطَهُنَّ؟**» قالت: فرس، قال: «**وَمَا هَذَا الَّـذِي عَلَيْهِ؟**» قالت: جناحان، قال: «**فَرَسٌ لَهُ جَنَاحَانِ!**» قالت: أما سمعت أن لسليمان خيلاً لها أجنحة؟ فضحك حتى رأيت نواجذه.

وأكّد ﷺ هذا المعنى بقوله: «**كلُّ شَـيءٍ ليسَ مِنْ ذِكْرِ اللهِ فَهُوَ لَهْوٌ، إلَّا أَرْبَعَ خِصَالٍ.. وَمُلاعبةُ الرَّجُلِ لِأَهْلِهِ**».

قالت عائشـة رضي الله عنها: خرجت مع النبي ﷺ في أسفاره وأنا جارية لـم أحمل اللحم ولم أبـدن، فقال للنـاس: «**تَقَدَّمُوا**» فتقدموا، ثم قال لي: «**تَعَالَي، حَتَّى أُسَابِقَكِ**» فسابقته فسبقته، فسكت عني، حتى إذا حملت اللحم وبدنت ونسيت خرجت معه في بعض أسفاره، فقال للناس: «**تَقَدَّمُوا**» فتقدموا، ثم قال: «**تَعَالَي، حَتَّى أُسَابِقَكِ**» فسابقته فسبقني، فجعل يضحك وهو يقول: «**هَذِهِ بِتِلْكَ**».

وقالت رضي الله عنها: زارتنا سودة يوماً، فجلس رسول الله ﷺ بيني وبينها، إحـدى رجليه فـي حجري والأخرى فـي حجرها، فعملت لها حريرة (حساء مطبوخ من الدقيق والدسم)، فقلت

لها: كلي، فأبت، فقلت: والله لتأكلن أو لألطخنّ وجهك. فأبت، فأخذت من القصعة شيئاً فلطّخت به وجهها، فضحك النبي ﷺ، فوضع فخذه لها وقال لسودة: «**الْطَخِي وَجْهَهَا**» فلطخت وجهي، فضحك ﷺ.

وكانت زينب رضي الله عنها تفلي رسول الله ﷺ وعندها امرأة عثمان بن مظعون ونساء من المهاجرات وهن يشتكين منازلهن، فتكلمت زينب وتركت رأس رسول الله، فقال ﷺ: «**إِنَّكِ لَسْتِ تَكَلَّمِينَ بِعَيْنَيْكِ، تَكَلَّمِي وَاعْمَلِي عَمَلَكِ**».

- وإن كانت هذه النصوص في معاملة رجل لزوجه، إلَّا أن كل زوجة مخاطبة بهذه المعاني الضخمة، ومسؤولة عن إدارة شؤونها من خلال التعامل مع زوجها وإشباع هذه المساحات بالحب والإعذار وخلق معاني الجمال، **ومن الخطأ أن تقرأ امرأة سيرته ﷺ وترى أن ذلك يعني الرجل ولا قدوة فيها لها.**

- **شيء من النزاع والخصام:**

ومع هذه المشاعر التي كانت تملأ بيوته ﷺ، لم تكن سالمة من شيء من النزاع والخصام، طبيعة الإنسان.

فقد كانت عائشة رضي الله عنها تخاصمه ﷺ، وربما ترفع صوتها، فيدخل أبو بكر رضي الله عنه ويريد ضربها، فيحول النبي ﷺ بينهما،

فلمَّا ولى أبو بكر قال ﷺ لهـا: «**أَلَا تَرَيْنَ أَنِّي قَدْ حِلْتُ بينَكِ وَبَيْنَ الرَّجُلِ؟!**».. ثم عـاد أبو بكر فاسـتأذن عليه، فوجده يضاحكها، فقال: يا رسـول الله، أشـركاني في سلمكما كما أشركتماني في حربكما.

وقد كانت الواحـدة منهن رضي الله تعالـى عنهن جميعاً يراجعنه في الأمر ويهجرنه، ويحتمل ﷺ كل ذلك ويصبر عليه.

وقد اجتمعن عليه ﷺ مرة يطلبن النفقة، فسـكت عنهن وهن يطلبن، ثم عرض عليهن ﷺ البقـاء معه على ظروفه أو الفراق، كما في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ۝ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٢٨ ـ ٢٩].

ولم يغضب، ولم يستعجل، ولم يهدد ﷺ، بل جعل ذلك حرية لمن أرادت الفراق أو البقاء، للدرجة التي كان ﷺ يقول لكل واحدة: «**إِنِّي ذَاكِرٌ لَكِ أَمْراً، فَلَا عَلَيْكِ أَلَّا تَسْتَعْجِلِي**».

• النظافة والزينة:

وكان ﷺ يرعى كل ما يجلب الود، ويديم مشاعر الحب من النظافـة والزينة.. فقد كان ﷺ **حريصاً على السـواك**،

وأول ما يدخل بيته يبدأ بالســـواك، ولا يرقد في ساعة من ليل أو نهار إلَّا استاك قبل وضوئه.

وحُبب إليــه الطِّيْبُ، وكان يكــره أن توجــد منه الريح الكريهة، وترك كثيراً من المباحات كالثوم والبصل رعاية لهذا الجانب في حياته.

وكان ﷺ يكرم شعره ويرجله.

ـ وهذا المعنى من أعظم ما ينبغي أن يُعتنى به، خاصة مع طول الزمن، ومن شأن الرجل أن يكون جميلاً رائقاً في عين زوجــه، وكذلك المرأة عليهــا أن تتعاهد هــذه المعاني قدر وســعها؛ فإن ذبول العناية بمثل ذلك مــن الزوجين موجب للبعد والزهد في بعضهما البعض مع طول الزمن، فلنتبَّه!.

• التربية على الفضيلة:

وكان ﷺ مع هذه المشــاعر الفياضة والأخــلاق الرائعة يربيهن على الفضيلة والعمل الصالح.. **فيوقظ أهله في العشر الأواخر من رمضان**، ولما ضرب له خباء ليعتكف فيه فعلت أزواجه مثله، فقال: «آلبِرَّ تُرِدْنَ؟!» ثم أمر بخبائه فأزيل، وقال: «**انْزِعُوهَا فَلَا أَرَاهَا**».

وكان يعلمهن الأذكار، فقال لجويرية: «**لَقَــدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَــاتٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لَــوْ وُزِنَتْ بما قلــتِ منذُ اليومَ**

لَوَزَنَتْهُنَّ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ، عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضَا نَفْسِهِ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ، وَمِدَادَ كَلِمَاتِـهِ».

وقال لعائشة: «**اسْتَتِرِي نَفْسَكِ مِنَ النَّار وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ**».

- **وهذا من شأن البيوت الصالحة أن تعتني بما يصلح حالها مع ربها تبارك وتعالى.**

- **ومن وعي الأسرة: أن تقيم شأن الصلاة وفي وقتها وفي الجماعة للزوج والأبناء**، وكل تساهل في هذه الشعيرة موجب للحرمان من الحياة الكريمة في مستقبل الأيام.

رأيـت بيوتـاً تجلُّ صـلاة الجماعـة حتى فـي أوقات الإجازات، ولا يتخلّف الزوج والأبناء عن مشـاهدها، وتقوم المرأة بدورها في ذلك، وتعد هـذه أولوية لا يمكن التواني عنها، ومثل هذه البيوت أقرب ما تكون إلى السعادة والتوفيق.

ورأيت بيوتاً تتخلّف عن موارد التوفيق فلا تقيم شأناً لأمر الله تعالى ولا لنهيه، ثم ما تلبث أن يكثر فيها الشقاق والنزاع والخصام والفوضى، حتى تنتهي أو توشك على الطلاق.

• التربية على الاعتدال:

وكان ﷺ يربـي زوجاته علـى اعتدال الفكـر والنظر في الأمور.. سأل ﷺ عائشة مرة فقال: «**كَمْ بَقِي مِنَ الشَّاة؟**» قالت:

ما بقي إلَّا كتفها. فقال: «**كُلُّهَا قَدْ بَقِيَ إِلَّا كَتِفَها**». لأن المتصدَّق به هو الباقي.

ـ **وكم لهذا المنهج من عوائد خير على البيوت!** مشكلتنا اليوم مشكلة تصورات ومفاهيم وأفكار، حتى إنك ترى من يستدين ديناً يطارده في الصباح والمساء، ويكون مهدداً به ومن خلاله بالسجون، وكل ذلك من أجل سفر للخارج، أو شراء أثاث بيت لا حاجة للأسرة به، أو شراء مستلزمات تقنية ونحوها هي مجرد كماليات، وكل ذلك أثر من آثار فقدان هذه التربية التي أشار إليها النبي ﷺ.

• الحث على الفضائل:

وكان ﷺ يحثهنَّ على الفضائل.. فقال: «**أَسْرَعُكُنَّ لُحُوقاً بِي أَطْوَلُكُنَّ يَداً**» يريد الصدقة.

ولمَّا تكلمت عائشة حين مات صبي، فقالت: طوبى له، عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل السوء. فقال: «**أَوَ غَيْرَ ذَلِك يَا عَائِشَةُ، إنَّ اللهَ خَلَقَ لِلْجَنَّةِ أَهْلاً، وَخَلَقَ لِلنَّارِ أَهْلاً**».

وما رأته عائشة محلُّ إجماع، إلَّا أن النبي ﷺ أراد أن يربيها على عدم القطع والتسرع في أمور الآخرة.

وقال لها ذات مرة: «**يَا عَائِشَةُ، عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَكُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَمَا نُزِعَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ**».

ولمَّا حكت له إنساناً، قال: **يا عائشة**، «**ما أحبُّ أنِّي حَكَيْتُ إنْسَاناً، وأنَّ لِي كَذَا وكَذَا**».

وكان يقول: «**يَا عَائِشَةُ، إِيَّاكِ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فإنَّ لَها مِنَ الله طَالِباً**».

ولمَّا قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنها: حسبُك من صفية... فقال: «**لَقَدْ قلتِ كلمةً لو مُزِجَتْ بماءِ البَحْرِ لَمَزَجَتْهُ**».

- وما حاجة البيوت اليوم إلى شيء **حاجتها إلى التربية الإيمانية وتعظيم أمر الله تعالى**، وإجلال شعائره، والقيام بواجباته، وترك ما نهى الله تعالى عنه.

وإن أسرة تجل هذا الوحي، وتعظّم أمر الله تعالى، وتحمل تبعاته، وتتباعد عن مواطن سخط الله تعالى وعقابه؛ لهي إلى خير وبر وتوفيق في مستقبل الأيام!..

• حُسن الظن:

وكان ﷺ يحسن الظَّنَّ بأزواجه.. **فكان** ﷺ **لا يأتي أهله في الليل**، ونهى أن يطرق الرجل أهله طروقاً يتخونهم أو يلتمس عثراتهم.

- **والبيوت التـــي عنيت ببناء صرح الثقة فيها عاشـــت مطمئنة من الخوف والقلق**، وســـلمت مـــن الأوهام التي بددت حياة كثيرين!.

- **ثمة مشكلات كبيرة في البيوت خاصة في زمن التقنية؛** مرة يدير هذه المشكلة الرجل من خلال كثرة شكوكه وظنونه وأوهامه حين يرى زوجه تمارس العمل على وسائل التواصل الاجتماعي، وتارة المرأة تمارس هذا الدور وتجعل نفسها في محل الشكوك والأوهام حين تقضي جل وقتها في اليوم على هذه الوسائل، وربما في ساعات متأخرة من الليل، حتى تكوّن حولها الشكوك، وتبدأ رحلة الفوضى في قلب زوجها!.

- **وإذا أراد الزوجان أن يبنيا جدار الثقة بينهما، فينبغي أن تكون هذه الوسائل دون أرقام ســـرية**، وفي متناول كل واحد منهما، وليس ثمة ســـتر بدعوى الخصوصية ونحو ذلك، فإن هذا بإذن الله تعالى أدعى لكسر كل الشكوك والأوهام، وبناء الثقة وتعميقها بين الزوجيـــن، ولو امتد هذا المنهج على كل الأسرة لصنع أجواء رحبة من الثقة والأمان داخل البيوت.

• وعاشروهن بالمعروف:

والقاعدة الكبرى في هذا الشأن: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]، ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وأوصى ﷺ فقال: «**اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْراً**».

قالت عائشة رضي الله عنها: ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده ولا امرأةً ولا خادماً، إلَّا أن يجاهد في سبيل الله.

ولمَّا بلغه ﷺ أن قوماً يضربون نساءهم، قال: «**أُولَئِكَ لَيْسُوا بِخِيَارِكُمْ**».

ـ وما أحوجنا إلى إعادة هذا النص: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ مراراً؛ فإن كثيراً من الخلل يقع في فواته، كم من زوج يطالب زوجه بالنظافة والأناقة في ثوبها وحديثها وحوائج بيتها، وهو لا يصنع شيئاً من ذلك لزوجه، فتقوم عنده قاعدة الحقوق على حساب الواجبات؟!.. وقل مثل ذلك في حال الزوجة؛ فهي تريد من زوجها أن يتأنق معها في الحديث وبث مشاعر الحب والإعذار، وهي لا تمارس شيئاً من ذلك.. ومَنْ فَقِهَ هذه القاعدة: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ عَلِمَ قدر التوازن بين قاعدة الحقوق والواجبات.

• قواعد كبرى في التعامل:

وأرشد ﷺ إلى قواعد كبرى في التعامل، فقال ﷺ: «**وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْراً؛ فَإِنَّهُنَّ خُلِقْنَ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ؛**

لَمْ يَـزَلْ أَعْوَجَ» وفـي رواية: «**المَـرْأَةُ كَالضِّلَـعِ: إِنْ أَقَمْتَها كَسَرْتَها، وإِنِ استَمْتَعْتَ بها استَمْتَعْتَ بها وَفيها عِوجٌ**».

وقال ﷺ: «**لَا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقاً رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ**».

- **ومَنْ عَلِمَ أصل هذا الضعف في المرأة، وتدرّب على هذه القواعد؛ أعاد بيته بهيجاً بمشاعر الحب وفن التعامل.**

جزء من مشكلاتنا اليوم أننا نتعامل مع المرأة ونحن نريد كل شـيء منها، ونحاول صوراً من الكمال لا تأتي في بنات آدم على الإطلاق.

وهذه القاعدة: «**فَإِنَّهُنَّ خُلِقْنَ مِنْ ضِلَعٍ**» تعلمك أن الأصل فيها القصور، وأنها خلقت من ضعف، وليس هذا في زوجك فحسب، وإنما في نسـاء حواء إلى قيام الساعة، فلا يخدعنَّك حديث إطراء تسمعه في مجلس من المجالس، أو رسائل عن أحوال عارضة لا تمنحك كامل الحقيقـة، وكن فطناً وإيجابيّاً في نظرتك، **فإن ما يعتري زوجك من نقص في شـيء مقابَل بصور من الجمال في أشياء أخرى**، وإياك أن تكون من الذباب الذي لا يقع إلَّا على الجروح رغم مباهج الجمال التي حوله.

٣

تعامله ﷺ مع أولاده

• أبناؤه وبناته:

كان له ﷺ ثلاثة من البنين: (القاسم، وعبد الله، وإبراهيم) وكلهم من خديجة، إلَّا إبراهيم من مارية القبطية، وكلهم تُوُفُّوا في الطفولة.

• وأربع من البنات: (زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة) وكلهم من خديجة، وكان يقول ﷺ: «**مَنِ ابْتُلِيَ مِنْ هَذِهِ البَنَاتِ بِشَيْءٍ كُنَّ لَهُ سِتْراً مِنَ النَّارِ**».

ـ **والأولاد نعمة من نعم الله تعالى**، وإذا منّ الله تعالى بهم على إنسان فليحمد الله تعالى وليشكره على عطائه، وليسأله تعالى أن يصلح شأنهم ويبارك فيهم ويبسط عليهم توفيقه.

ومن فقه الأبوين: أن يجعلا أبناءهم مشــروعاً، وييممون وجوههم باتجاهه قدر الوسع، ويبذلون لهم كل شيء.

ومن لم يرزق بأولاد فليحمد الله تعالى على قضائه وقدره، وليعلم أن قضاء الله تعالى لــه خير، كما قال ﷺ: «**عَجَباً لأمْرِ**

المُؤْمِنِ، إنَّ أمرَه كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، إنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْراً له، وإنْ أصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْراً له».

وعليه أن يركّز على أبناء العلم والمشاريع، فإنه نائل من آثارهم ما يفوق أبناء الصلب في كثير من الأحيان!.

- **علينا أن نؤمن أن الأبناء من أعظم المشاريع**، وقد قال ﷺ : «**إذا ماتَ ابنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُه إلَّا مِنْ ثلاثٍ... أو ولدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**» وكم من ولد صالح أجرى لوالديه الحياة!.

وهذه الأماني الكبار لا تأتي في الأصل إلَّا من خلال استشعار لمعانيها، وبذل الأسباب الممكنة لبلوغها؛ كإصلاح الإنسان لنفسه، وإحياء الصلة بينه وبين الله تعالى، وتكوين القدوة الصالحة، والاطلاع الدائم على الأفكار والمفاهيم المؤثرة في بناء شخصياتهم من خلال القراءة والسماع والتجارب التي تبني هذا المشروع على أسسه ومفاهيمه الصحيحة في مستقبل الأيام.

- **ينبغي أن يكون ولدك شريكاً لك في كل شيء**، وإعداد الأبناء للحياة لا يتم من خلال تأمين لقمة العيش، وإنما يأتي من خلال دمجهم في كل شيء حتى ينشؤوا في أجواء تعينهم على بناء مستقبلهم باقتدار.

- **حاله ﷺ مع بناته:**

- وقد كان نبيك ﷺ يشـاور بناته في أمر زواجهن؛ فقد قال ﷺ لفاطمـة لمّا خطبهـا علـي: «**إنَّ عَلِيّاً قَـدْ ذَكَرَكِ**» فسـكتت، فخرج فزوَّجها، وزوّجها ﷺ على درع الحطمية، **وكذلك الكبار لا تعنيهم تكاليف الزواج في شيء، وإذا وجد الرجل الصالح الذي يحسن عشرتها فقد وجد كل شيء.**

- **ولم تكن علاقته ﷺ تنتهي بهن عند ليلة الزواج** كما هو حال كثيرين، وإنما تمتـد ما بقيت الحياة، ومن ذلك: ما حـدث ليلة الـزواج، قـال ﷺ لعليّ: «**لا تُحْدِثْ شَـيْئاً حَتَّى تَلْقَانِـي**» فدعـا رسـول الله ﷺ بمـاء وتوضأ فيه، ثم أفرغـه عـلى عليّ، وقـال: «**اللَّهُمَّ بَارِكْ فِيهِمَا، وبَارِكْ لَهُمَا فِي بِنَائِهِمَا**».

- **ولمـا أراد ﷺ الخروج لبدر كان يشـغله مـرض بنته رُقية** رضي الله عنها، فأمر زوجها عثمان أن يتخلّف عن الغزوة ويبقى في المدينة ليمرضها، وضرب له بسهم في مغانم بدر..

- **ومع كل هذه الرعاية التي يوليها ﷺ لم يكن يتدخل في مشـكلاتهن مـع أزواجهن،** فقـد مر ذات يـوم على فاطمة رضي الله عنها وسألها عن زوجها، فقالت: غاضبني فخرج ولم يَقِلْ عنـدي. فبحث عنه فوجده في المسـجد مضطجعاً قد

سقط رداؤه عن شقه وأصابه تراب، فجعل رسول الله ﷺ يمسحه عنه، ويقول: «**قُمْ أَبَا تُرَابٍ، قُمْ أَبَا تُرَابٍ**»! ولم يحدّثه عن شيء من مشكلاته.

ـ **وللبيوت أسرار، وليس من شأن الآباء السؤال عن تلك الأسرار**، ويكفي رعاية المشاعر والسؤال، فإذا ما فوتح في مشكلة شارك في حلّها، وإلّا لم يكن من شأنه كشف ستر البيوت والتجسس على أحداثها.

• وإذا زارته ﷺ إحدى بناته أحسن استقبالها، واحتفى بقدومها، قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: دخلتْ عليه فاطمة، فقام إليها ورحّب بها قائلاً: «**مَرْحَباً بِابْنَتِي**» وقبّلها وأجلسها مجلسه!.

ـ وما أنا محدِّثك عن جلال هذا الموقف، ولكن حسبك أن تمنحه شيئاً من مشاعرك، وتتأمل في صورة أب يترك مجلسه ويقوم إجلالاً لبنته وإكراماً لها وتقديراً لشأنها.. **يا أيها الآباء، كل عطاء ينتهي إلّا عطاء الحب**! وكل صورة تذبل في مشاعر صاحبها إلّا صورة الحب! وكل مواقف الحياة يبليها الزمن إلّا مواقف الحب!.

• وكان ﷺ مع هذه المشاعر يرعى دينهن، ويحرص على تربيتهن حتى وهنَّ عند أزواجهن.

وصل ذات مرة إلى باب فاطمة رضي الله عنها، فوجد عليه ستراً، فلم يدخل ورجع، وقال لعلي رضي الله عنه: «**قلْ لَهَا أَنْ تُرْسِلَ بِهِ إلى بَنِي فُلانٍ أهلِ بيتٍ بِهِمْ حَاجَةٌ**».

وقد كره لها ما كره لنفسه من استعجال الطيبات، والركون إلى الدنيا.

ولمَّا شكت إليه فاطمة رضي الله عنها ما تلقى في يدها من الرحى، وسألته خادماً، قال لها ولزوجها: «**أَلَا أُعَلِّمُكُمَا خَيْراً مِمَّا سَأَلْتُمَانِي، إِذَا أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا تُكَبِّرَا أَرْبَعاً وَثَلَاثِينَ، وَتُسَبِّحَا ثَلَاثاً وَثَلَاثِينَ، وَتَحْمَدَا ثَلَاثاً وَثَلَاثِينَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ**».

- **ومن فقه الأب أن يَصِلَ قلوبَ ذريته بربه تبارك وتعالى، ويعيد بناء المفاهيم والتصورات على المنهج الصحيح**، ويُصْلح شأن القلوب والأرواح قبل شؤون الأجساد.

- وكان ﷺ يدعوها إلى تحمُّل المسؤولية: «**يَا فَاطِمَةُ، أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لا أملكُ لَكِ مِنَ اللهِ شيئاً**».

وجاء مرة إليهما ليلاً فقال لهما: «**أَلَا تُصَلِّيانِ!**».

وقال لها مرة: «**يَا فَاطِمَةُ، مَا يَمْنَعُكِ أَنْ تَسْمَعِي مَا أُوصِيكِ بِهِ: أَنْ تَقُولِي إِذَا أَصْبَحْتِ وَإِذَا أَمْسَيتِ: يَا حَيُّ يَا قَيّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ، أَصْلِحْ لي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلَا تَكِلْنِي إلى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ**».

- **ومن وعي الأسرة: أن تنمِّي هذا الحسَّ قدر وسعها في نفوس أبنائها** بكل الوسائل الممكنة، خاصة في مثل هذا الزمان الذي بات تُنسف فيه القيم والمبادئ، وتشوّه فيه المفاهيم، وتحرّف فيه العقائد إلى أبعد مدى!.





تعامله ﷺ مع الصغار

• القدوة مع الصغار:

كان ﷺ قدوة في كل شيء ومن توفيق الإنسان وكمال وعيه أن يحاول جاهداً أن يتخلّق بأخلاقه، ويتمسَّك بهديه حتى يأتي على أمانيه كما يريد.

ومن معالم هذه القدوة: **أنه ﷺ كان يؤتى إليه بالصبيان فيحنكهم** (يمضغ تمرة ثم يدلك بها حنك الصغير)، وهذا شيء خاص به ﷺ لبركة ذاته، وليس من حق إنسان مهما بلغ صلاحه أن يصنع كما صنع في هذا الشأن. ويبولون على ثيابه ولا يجد غضاضة في ذلك.

وكان ﷺ يؤم الناس ويحمل أمامة بنت أبي العاص بنت بنته زينب على عاتقه، فإذا ركع وضعها، وإذا رفع من السجود أعادها.

وخرج مرة في إحدى صلاتي العشاء وهو حامل حسناً أو حسيناً، فتقدم فوضعه، ثم كبر للصلاة وصلى، فسجد سجدة أطالها، قال شداد راوي الحديث: فرفعت رأسي وإذا الصبي

على ظهر رسول الله ﷺ وهو ساجد، فرجعت إلى سجودي، فلمَّا قضى الصلاة قال الناس: إنك سجدتَ سجدةً أطلتَها حتى ظننا أنه حدث أمر، أو أنه يوحى إليك! قال: «**كلُّ ذلك لَمْ يَكُنْ، ولكنَّ ابني ارْتَحَلَني، فَكَرِهْتُ أَنْ أَعْجَلَهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ**».

وكان الحسن والحسين يثبان على ظهره إذا صلى، فإذا رفع رأسه أخذهما بيده من خلفه أخذاً رفيقاً ووضعهما على الأرض، فإذا عاد عادا، حتى إذا قضى صلاته أقعدهما على فخذيه.

وقَبَّلَ ﷺ **الحسن** وعنده الأقرع بن حابس التميمي، فقال: إِنَّ لِي عَشَرَةً مِنَ الوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحداً. فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: «**مَنْ لَا يَرْحَمْ لَا يُرْحَمْ**».

وخرج مرة فإذا بالحسين يلعب في الطريق، فتقدم ﷺ أمام القوم وبسط يديه، فجعل الغلام يفر هاهنا وهاهنا ويضاحكه ﷺ حتى أخذه!.

وأتي ﷺ بثياب فيها خميصة سوداء، فقال: «**ائْتُوني بأمِّ خَالِدٍ**» فألبسها ﷺ بيده، ثم داعبها مع صغرها قائلاً: «**سَنَا يَا أَمَّ خَالِدٍ**» أي: جميل.

- **يكنّي ويثني ويفرح ويُلبس بيده، وتلك النماذج التي تستحق أن تمنحها القلوب مشاعر الحب والوجدان.**

وكان يلاعب زينب بنت أم سلمة، ويقول لها: «**يَا زُوَيْنَبُ، يَا زُوَيْنَبُ**»!.

ودخل عليه محمود بن الربيع ابن خمس سنوات، فمج في وجهه بالماء.

وكان يكنّي الصغار ويعتني بشؤونهم، ويغمرهم بالسؤال، جاء ذات مرة إلى أخ لأنس بن مالك يسأله عن عصفوره الصغير: «**يا أبا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ**»!.

- والكبار رغم مسؤولياتهم يجدون أوقاتاً حتى للصغار، ويهبون لهم من مشاعر الحب ما يكفي لإدخال الفرح على حياتهم.

• احترام الأطفال وتقديرهم:

وكان ﷺ يحترم الأطفال ويقدّرهم.. وقد أُتِيَ بشراب، فشرب منه، وعلى يمينه غلام، وعلى يساره أشياخ، التفت إلى الطفل وقال: «**أتأذَنُ لي أَنْ أُعْطِيَ هَؤُلَاءِ؟**»..

- والقِيَمُ لا يكتبها مجرد حديث عابر، وإنما تحتاج إلى قدوات ترسم معالمها وتكتب حظها من الحياة.

• العناية بتربيتهم:

وكان ﷺ يعنى بالتربية في كل شأن من شؤون حياته، وكذلك في كل عمل يمارسه مع الآخرين، ولم تنفصل مشاعره

التي كان يهبها لمن حوله مع التربية التي يريد أن يكتب حظها من واقعه الذي يمارسه.

رأى ذات مرة الحسين يأخذ تمرة من تمر الصدقة، فقال: «**كِخْ كِخْ. أَمَا شَعَرْتَ أَنَّا لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ**».

- **يمنعه ويفسّـر له سـبب ذلك المنع**.. وكم من محروم لا يدري ما سبب حرمانه! وكم من طفل ضُرب بعد زمن من خطئه فلا يدري لم ضُرب! وربمـا يبقى في خطئه، ويضرب ثانية وثالثة وتطوله المشكلات النفسية بعد زمن.

• وعلّم ﷺ عبد الله بن عباس في صغره، فقال: «**يا غُلَامُ، احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ**».

- **والكلمة الصادقة تكتب حظها حتى من الصغار، ويكبرون وتكبر تلك الكلمة الثمينة معهم**، وينالون من حظها في النهاية كل شيء.

• وقال ﷺ لأنس رضي الله عنه: «**يَا بُنَـيَّ، إذا دَخَلْتَ على أَهْلِكَ فَسَلِّمْ تَكُنْ بَرَكَةً عَلَيْكَ وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِكَ**».

- وإذا تأملت النداء في بداية الحديث: «**يا بُنَيَّ**»، وأمعنت في خاتمـة التوجيه: «**تَكُنْ بركـةً عَلَيْكَ وَعَلَى أَهْـلِ بَيْتِكَ**» علمت كيف تصبح هذه المعاني واقعاً في نفوس المستقبلين!.

• ولما رأى ﷺ يد عمر بن أبي سلمة تطيش في الصحفة، قال له: «**يا غُلَامُ، سَمِّ اللهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ**».

ـ **والدرس إذا جاء في حينه كانت غنائمه فوق تصورك في مرات كثيرة.**

ـ **مشكلة كثيرين أنهم يتسوَّرون القلوب والمشاعر كما يتسوَّرون الجدران، ويريدون أن تصلَ رسالتُهم وتُستقبل بالترحاب، وهم لم يبنوا لها جسراً من الحُبِّ ترقى عليه،** وتعانق القلوب كما تشاء.

ـ **الحب يصنع كل شيء**، وإذا أحبك الإنسان قَبِلك ورضي منك وأطاعك، واستطعت من خلال هذا المعنى بث مشاعر الحياة في قلبه وفكره كما تشاء!.

ـ **كان نبيك ﷺ يصنع الاهتمام بكل من حوله صغيراً أو كبيراً، ويمنح الحب دون مقابل، ويحسن التركيز على الجوانب الإيجابية، ويثري من خلالها الحياة**، وكل مربٍّ وعى هذه الجوانب الثلاثة، وركّز عليها، واعتنى بها؛ صنع منها فيمن حوله الحياةَ.

***



تعامله ﷺ مع الأقارب

• حق الأقارب:

كان ﷺ يعرف للأقارب حقهـــم، وكذلك يقوم بواجبهم، ويثري ساحاتهم بكل شيء..

حتى قال ﷺ: «**أُذَكِّرُكُمُ اللهَ في أهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ في أهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ في أهْلِ بيتي**».

وزار ﷺ قبر أمه بعد موتها فبكى ﷺ، واســـتأذن ربه أن يستغفر لها فلم يؤذن له.

وكان حريصاً على دعوة قومه للإســـلام، وردد مشـــفقاً: «**يا معشرَ قريشٍ، اشْـــتَروا لأنْفُسِـــكُمْ، لا أُغْنِي عنكم مِنَ الله شيئاً، يا بَنِي عبدِ مَنَافٍ، لا أُغْني عنكم مِنَ الله شيئاً، يا عبَّاسُ، لا أُغْني عَنْكم مِنَ الله شيئاً، يا صفيةُ عمَّةَ رسولِ الله لا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ الله شـــيئاً، يا فاطمةُ بنتَ محمدٍ سَـــلِينِـــي ما شِئْتِ، لا أُغْنِي عنكِ مِنَ الله شيئاً. غَيْرَ أنَّ لكم رَحِماً سَأَبُلُّها بِبِلالِها**» أي: سأصلها بالمعروف.

وكان حريصاً علــى هداية عمِّه أبي طالــب، ويردد عند الوفاة: «**يا عمُّ، قلْ: لا إلٰه إلَّا الله**».

وفي يوم بدر أُتي بالأسارى وفيهم العباس، ولم يكن عليه ثوب، فنظر ﷺ لــه قميصاً، فوجدوا قميــص عبد الله بن أبيّ يقدر عليه ـ أي: في الطول ـ فكساه النبيُّ ﷺ إياه.

ولمَّا قدم جعفــر بن أبي طالب بعد فتــح خيبر، قام إليه والتزمه، وقبَّل ما بين عينيــه واعتنقه، وقال: «**ما أدْرِي بِأيِّهِمَا أُسَــرُّ: بقدومِ جعفرٍ، أو بِفَتْحِ خيبر؟!**» وأنزله جنب المسجد وأسهم له في خيبر.

ولمَّا استشهد في مؤتة جاء إلى أهله، فقال: «**لا تَبْكُوا عَلَى أَخِي بَعْدَ اليَوْم، ادْعُوا لِي بَنِي أَخِي**»، قال عبد الله بن جعفر: فجيء بنا كأنَّــا أفرخ، فقــال: «**ادعــوا لي الحــلّاق**» فجيء بالحلاق، فحلق رؤوسنا، ثم جاءت أمنا، فقال: «**العَيْلَةَ تَخَافِينَ عَلَيْهِمْ، وَأَنَا وَلِيُّهم في الدُّنيا وَالآخِرة**»!.

ـ وكذلك الحياة! وخيركم خيركم لأهله، وما يجدي وجود إنســان لا ينتفع به قومه ومجتمعه وأهله فــي حوائج الزمان ونوائب الدهر! كم مــن دَيْن في أعنــاق المثقفين وأصحاب المنهج لمجتمعاتهم وأقوامهم!..

• وقد قالت خديجة رضي الله عنها في باكر التاريخ وفي أول مواقف الوحي معه ﷺ حين عاد خائفاً من غطّ جبريل عليه السلام له في الغار: (كلا والله، لا يُخْزِيكَ اللهُ أبداً، إنَّك لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتحمل الكَلَّ، وتَقْرِي الضَّيفَ، وتُعين على نَوائِبِ الحَقِّ).

- **ومن لا يرفع راية في نكبات قومه؛ فحقه الهوامش إلى أن يموت**، ولا مأسوف على رحيله! ويستوي في ذلك الرجل والمرأة لا فرق، وكم من امرأة صنعت في مجتمعها الحياة! وكم من امرأة مرابطة على دار لإعداد الصالحات، وأخريات على جملة من الثغور يناهضن الباطل ويقفن في وجه العدوان!.

- **وإذا رأيت مجتمعاً مؤتلفاً متآخياً متعاوناً باذلاً، فاعلم أن الله تعالى منّ عليه بصاحب راية**، وإذا رأيت مجتمعاً في المقابل مختلفاً متنازعاً متخاصماً، فاعلم أن الله تعالى لم يمنّ عليه حتى هذه اللحظة بصاحب راية! وما أعظم أثر المصلحين في مجتمعاتهم!.

• احترام قيم الشرع وقوانينه:

وهذه العناية والاهتمام الذي كان يلقاه أقاربه ﷺ وقومه لم يكن على حساب قيم الشرع ونظمه وقوانينه.. كلا! وكم من مسؤول حابى قومه وجماعته وقبيلته في وظائف

ومسؤوليات وأمانات لا يصلحون لكثير منها، وترك غيرهم من الأقوياء الأمناء! أما هو ﷺ فلم يكن يحابي أحداً منهم في دين الله تعالى.

وحين قال له الأنصار يوم بدر: يا رسول الله، ائذن لنا فلنترك لابن أختنا العباس فداءه. قال: «**لا تَدَعُونَ منه دِرْهماً**».

وأول دم وضعه من دماء الجاهلية دماء أقاربه، وأول ربا وضعه ربا العباس.

- **وهذه صناعة الكبار، يقومون بحق القرابة الشرعي، ويقفون ضد العواطف حين تنحرف عن الطريق**، وما أكثر ما تميل النفوس للقرابة، وتميل القلوب طبيعة وجبلة! بخلاف القدوة ﷺ الذي يضع حدّاً فاصلاً بين الواجب الشرعي من الحب والتقدير والإكرام والعواطف البشرية التي يجدها كل إنسان في قلبه تجاه أهله وأقاربه، وبين قوانين الشريعة التي يجب أن تجري على الجميع كأسنان المشط الواحد على الجميع لا فرق، والله المستعان!.

٥

تعامله ﷺ مع الجيران

• حقوق الجار:

أعلن ﷺ حقوق الجار، وبيَّنَ مكانته في الإسلام، ونبَّه ﷺ في مناسبات مختلفة على كل ما من شأنه حفظ هذه الحقوق، فقال ﷺ: «**مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ؛ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّه سَيُوَرِّثُهُ**».

وقال ﷺ: «**مَنْ كانَ يُؤْمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جارَهُ**».

وحذَّر ﷺ غاية التحذير من إيذاء الجار، فقال ﷺ: «**وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ**» قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَايِقَهُ**».

وأوصى أبا ذر وصية لطيفة، فقال: «**يَا أَبَا ذَرٍّ، إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً، فَأَكْثِرْ مَاءَهَا، وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ**».

وأوصى النساء، فقال ﷺ: «**يَا نِسَاءَ المُسْلِمَاتِ، لَا تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا، وَلَوْ فِرْسِنَ شَاةٍ**».

- وإذا قرأت هذا الفصل من حقوق جارك عرفت ما له من واجب شرعي، ومن فقهك وكمال وعيك وأدبك: ألَّا تتوانى في شيء من ذلك؛ فإن الفلاح كل الفلاح في طاعته ﷺ وتعظيم شعائره!.

- **من المؤسف اليوم أن معرفتنا بحقوق الجيران تزيد، ويضعف في المقابل تطبيقنا لهذه المعرفة إلى أبعد حد**، تتعدد الوسائل التي تصل إلينا من خلالها المعرفة بشكل مذهل جدّاً، وينضب أثر هذه المعرفة في واقعنا بشكل ملفت للنظر، وما حاجتنا اليوم في مثل هذه المعاني إلى قدوة يمد في أثر هذه النصوص، ويجعلها واقعاً تعيشه الأجيال في مستقبل الأيام.

- ليس بالضرورة أن تطبخ مرقاً في بيتك لتنال شرف هذا المعنى: «**يَا أَبَا ذَرٍّ، إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً، فَأَكْثِرْ مَاءَهَا، وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ**» وإنما يكفيك أن تأخذ مقابل ذلك شيئاً من الخضار والفواكه، وتدفع بها إلى جيرانك، **ليصبح حديث أبي ذر واقعاً وليست قصة جاوزها زمانك**، هذا فضلاً عن إجلال جارك، وحسن التعامل معه، ودفع الضرر عنه، واستشعار وصية نبيك ﷺ: «**مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ؛ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّه سَيُوَرِّثُهُ**».



تعامله ﷺ مع الخَدَم

- **القرب من الناس:**

كان ﷺ سهلاً بسيطاً قريباً من الناس، حتى إن الوليدة من ولائد أهل المدينة تأخذ بيد رســول الله ﷺ، فلا ينزع يده من يدها، وتذهب به حيث شاءت.

وكان ﷺ يقول: «**إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُــمْ، جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَــنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَــدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ**».

ومرض الغلام اليهودي الــذي يخدمه، فعاده ﷺ ثم دعاه للإسلام فأسلم.

وتألَّم على فوات التي كانت تقمُّ المسجد، ثم ذهب فصلى على قبرها.

ـ **فتخيّل هذه الأخلاق**، ومُدَّ بصرك في هذه الأحرف التي تخاطب قلبك وتبسط جمالها في مشاعرك إلى أقصى مدى!..

ـ **تخيّل أعظم قائد في الدنيا كلها** وتأخذ الأَمَةُ بيده تقضي به حاجتها!.. ويعود ﷺ غلاماً يهوديّـاً رغم ظروفه التي ينوء بها!.. ويجد مضَّ مشاعر الأسـى والحزن على فوات المرأة العجوز التي كانت تقم المسجد في زمانه ﷺ.

• تفقد الخدم:

وكان ﷺ يتفقَّد خدمه، ويمـر على الواحد منهم، ويقول: «**أَلَكَ حَاجَةٌ؟**»..

ـ يا الله! **أين هذه الأخلاق من زوج يهجر زوجه ويمضها بالعناء زمناً**، ويسعى في إرهاق مشاعرها بكل ما يملك؟!.

ـ **أين هذه الأخلاق من أولئك الذين يكدون تلك الخادمة** من حينما تصبح حتى تمسـي، ويحرّمون عليها لحظة راحة تريد أن تتخفّف بها من العناء، وهي كأمهم لا فرق؟!.

ـ **أين هذه الأخلاق من صور أولئك الذين يستنزفون عرق أولئك العمال**، ويأكلونه زقوماً في وضح النهار؟!..

• مكافأة الخدم على جهودهم:

وكان ﷺ يكافـئ هؤلاء الخـدم على قـدر عنائهم، حتى قال ﷺ لربيعة بن كعب: «**سَلْ**» قال: أسألك مرافقتك في الجنة.

وقال ﷺ: «**أَعْطُوا الْأَجِيرَ أَجْرَهُ قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ عَرَقُهُ**».

وشدد النهيَ عن حرمانهم من أجورهم، فقال: «**ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ:... وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيراً فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ**».

- **وإذا أنعم الله تعالى عليك بمسؤولية أو مكان أو مال فلا تستبد بها على هؤلاء الضعفاء**، بل اجعلها طريقك إلى الجنان، وكم من موقف فيه من الرحمة بهؤلاء أورد صاحبه للجنان!.

- **تلطُّفه معهم:**

وبلغ من تلطُّفه ﷺ معهم: **أنه نهى عن مناداتهم بعبدي وأمتي**، فقال: «**لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي وَأَمَتِي، كُلُّكُمْ عَبِيدُ اللهِ، وَكُلُّ نِسَائِكُمْ إِمَاءُ اللهِ، وَلَكِنْ لِيَقُلْ: غُلَامِي وَجَارِيَتِي، وَفَتَايَ وَفَتَاتِي**».

وتراه ﷺ يرعى مشاعرَ هؤلاء، ويحافظ عليها حتى من الكلمة العابرة، **ورعاية المشاعر فن لا يُحْسِنه إلَّا الكبار!**.

ولمَّا رأى أبا مسعود يضرب غلامه، قال: «**اعْلَمْ، أَبَا مَسْعُودٍ، أَنَّ اللهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلَامِ**» فقال

أبو مسـعود رضي الله تعالى عنه: هو حر لوجه الله. فقال ﷺ: «**لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلَفَحَتْكَ النَّارُ**».

وكان آخر وصية له ﷺ في الحياة: «**الصَّلاةَ، وما مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**».

وسـجّل أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه وصفاً لسيرته ﷺ لا تصفها الأقلام، حين قال: (خَدَمْتُ رَسُـولَ اللهِ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ، وَاللهِ مَا قَالَ لِي: أُفّاً، قَطُّ، وَلَا قَالَ لِي لِشَيْءٍ: لِمَ فَعَلْتَ كَذَا؟ وَهَلَّا فَعَلْتَ كَذَا؟)..

- عشر سـنوات ليسـت ليلة أو يوماً وإنما سنوات طويلة المدى! ولو أن هذا الوصف ينفع إذا بُل في الماء وشُرب لكان من الوعي أن يصنع فيه الإنسان ما شاء!.

ونسأل الله تعالى أن يجمِّلنا بهذه المعاني، ويمن علينا بتوفيقه وهداه، ويسلك بنا سبيل رسوله ومصطفاه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.



تعامله ﷺ مع الفقراء

• الاهتمام بحال الفقراء ومساعدتهم:

كان ﷺ يغتم لحال الفقراء ويفزع لهم، ولمَّا قدم عليه وفدُ مُضَرَ ورأى حالهم وظروفهم، أمر بلالاً فأذّن وأقام، فصلى ثم خطب، وأمر الناس بالصدقة، قائلاً: «**تَصَدَّقَ رجلٌ من دِينَارِهِ، مِن دِرْهَمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ**» حتى قال: «**وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ**».

• أهل الصُّفَّة:

وكان ﷺ يتفقّد أهل الصُّفَّة، ويقوم على شؤونهم، ويجالسهم ويؤانسهم، وكان يوزعهم على أصحابه، فكان الرجل يذهب بالرجل، والرجل بالرجلين، والرجل بالثلاثة، والرجل بالعشرة، وما بقي منهم أدخله بيته ﷺ وأطعمهم معه، وكان ﷺ يسأل كل واحد عن حاجته، ويقضي حاجة المحتاج منهم.

• دعم مشاعرهم:

وكان ﷺ يدعم مشاعرهم، ويسليهم في ظروفهم، قائلاً: «**اطَّلَعْتُ في الجنَّةِ فرأيتُ أكثرَ أهلِها الفقراءَ**».

• تزويج الصالحين منهم:

وكان ﷺ يسعى في تزويج الصالحين منهم، فقد ذهب إلى رجل من الأنصار، فقال له: «**زوِّجْنِي بِنْتَكَ**» فقال: نعم وكرامة يا رسول الله. فقال: «**لَسْتُ أُرِيدُها لِنَفْسِي وَإِنَّمَا لِجُلَيْبِيب**».

- **ومع كل هذا كان ﷺ يربيهم على العفة وعدم السؤال، ويشجعهم على العمل والاعتماد على النفس** في أحاديث كثيرة في هذا الباب.. وهذا من كمال تربيته وحسن رعايته ﷺ، **والتكامل والتوازن يبني شخصيات قادرة على التفاعل مع واقعها وفق مساحة الممكن.**

- إن مشاهد الجمال في هذا المعنى كثيرة جدّاً، من أهمها: **شعوره ﷺ بمن حوله، وحرصه على إغاثة مشاعرهم، وتسلية قلوبهم، وهذا فن لا يحسنه إلَّا الكبار،** فضلاً عن مواراة سَورة الجوع التي كان ﷺ يجهد في سَدِّها بكلِّ ما يمكن.

***



تعامله ﷺ مع ذوي الهيئات

• الكبير في القدوة والمسؤولية:

كان ﷺ كبيراً في مكانته وقدوته ومسـؤوليته، **وكان مع ذلك يحفظ مكانة الكبار في قومه، ويمنحهم جاههم، ويقوم لهم بحقوقهم.**

ومن ذلك: أنه حين أسلم أبو سفيان في فتح مكة قال ﷺ: «**مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ**».

ولمَّا نزل بنو قريظة على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه، وأقبل، قال ﷺ: «**قُومُوا إلى سَيِّدِكُم**».

وكان يتوق إلى إسلام الكبار والمؤثرين، ويردد في دعائه: «**اللَّهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلَامَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ: بِأَبِي جَهْلٍ، أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ**».

وكان ﷺ يخصهم بالدعـوة، ويعتني بهم، وفي مثل هذا نزل عتاب الله تعالى له في سورة عبس حين أقبل إليهم وعبس في وجه ابن أم مكتوم من أجل هذا المعنى، وكان يحتمل عثراتهم ويدعو للعفو عنهم، فقال ﷺ: «**أَقِيلُوا ذَوِي الهيئاتِ عَثَراتِهِم إلَّا الحُدُودَ**».

وقال ﷺ: «**إِذَا أَتَاكُمْ كَرِيمُ قَوْمٍ، فَأَكْرِمُوهُ**».

ولما قُدِمَ عليه بثمامة بن أثال أسيراً، قال: «**أتدرونَ مَنْ أخذتُمْ؟ هذا ثُمَامَةُ بن أثالَ الحَنَفِيُّ، أَحْسِنوا إسَارَهُ**» وكان سيد أهل اليمامة.

• الاستعانة بهم:

وكان ﷺ يستعين بهم على القضاء على المنكرات، فقال لجرير: «**أَلَا تُرِيحُني مِنْ ذِي الخَلَصَةِ؟!**».

• زيادة أعطياتهم:

وكان ﷺ يزيد في أعطياتهم، ويقدّمهم على غيرهم، فقد أعطى أبا سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعيينة بن حصن والأقرع بن حابس كل واحد منهم مئة من الإبل، وقال: «**إنَّما أَتَأَلَّفُهُمْ**».

ـ وأنت إذا قرأت هذه النصوص بإمعان بان لك حرصه ﷺ على إكرام الكبار، وحفظ مكانتهم، وتقدير مسؤوليتهم، والقيام بحقوق تلك المكانة لهم.. **وهذا نوع من الأدب** لا يفوت إلّا على جاهل..

ـ **وفي المقابل كان ﷺ يستثمر تلك المسؤوليات في نفع هذا الدين، وإصلاح ذلك الواقع، فيستعين بكل واحد من هؤلاء في المكان اللائق به،** ويصنع من خلال ذلك واقعاً بهيجاً لدين الله تعالى في الأرض، وهذا هو الفقه والوعي اللائق بقارئ هذه المساحة من سيرته ﷺ.



تعامله ﷺ مع العصاة

- **الرفق بهم:**

كان ﷺ رحيماً رفيقاً بهم؛ أتاه فتى يستأذنه في الزنى، فقال له ﷺ : «**ادْنُهْ**» فلمَّا دنا منه ذكّره قائلاً: «**أتُحِبُّه لأمِّكَ، لِبِنْتِكَ، لِأُخْتِكَ، لِعَمَّتِكَ، لِخَالَتِكَ؟**» وهو يقول: لا والله، جعلني الله فداءك، ورسول الله ﷺ يقول: «**وكذلك النَّاسُ لا يُحِبُّونَهُ لأمَّهَاتِهِمْ، وَلَا لِبَنَاتِهِمْ، وَلَا لِأَخَوَاتِهِمْ، وَلَا لِعَمَّاتِهِمْ، وَلَا لِخَالَاتِهِمْ**» ثم دعا له: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ**».

وجاءه رجل فقال: يا رسول الله، إني عالجت امرأة في أقصى المدينة، وإني أصبت ما دون أن أمسَّها.. فلم يردَّ عليه ﷺ ، ولمَّا أدبر بعث وراءه رجلاً يتلو عليه قول الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

وكان ﷺ إذا جاءه العاصي طالباً للحد صرفه، فإذا وجد منه الإصرار أقام عليه الحدَّ، كما في قصة ماعز، ولمَّا أقيم عليه

الحدُّ وفرَّ من مسِّ الحجارة، قــال ﷺ: «**هَلَّا تَرَكْتُمُوهُ لَعَلَّهُ أَنْ يَتُوبَ، فَيَتُوبَ اللهُ عَلَيْهِ**».

وكان ﷺ لا يستفســر عن الذنب الذي وقع فيه الســائل، وحين جاءه رجل وهو في المسجد، وقال: يا رسول الله، أصبت حدّاً فأقمه عليَّ. ســكت عنه ﷺ ولم يسأله عنه، ثم أعاد عليه وسكت عنه، ثم أقيمت الصلاة، فلمَّا قُضِيَتِ الصلاة خرج ﷺ، فلحقه الرجل وأعاد عليه، فقال له ﷺ: «**أَرَأَيْتَ حِينَ خَرَجْتَ مِنْ بَيْتِكَ، أَلَيْسَ قَدْ تَوَضَّأْتَ فَأَحْسَنْتَ الوُضُوءَ؟**» فقال: بلى. قال: «**ثُــمَّ شَــهِدْتَ الصَّلَاةَ مَعَنــا؟**» قال: نعم يا رســول الله. فقال ﷺ: «**فَإِنَّ اللهَ قَدْ غَفَرَ لك ذَنْبَكَ**».

• النهي عن سب العصاة:

ونهى ﷺ عن ســب العصاة، وحين جُلد السكران، فقال رجل: ما له أخــزاه الله؟! قال ﷺ: «**لا تَكُونُوا عَوْنَ الشَّــيْطانِ عَلَى أَخِيْكُمْ، ولَكِنْ قُولُوا: اللَّهُمَّ اغْفِرْ له، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ**».

وحين لُعِنَ آخر في الشراب، قال ﷺ: «**لا تَلْعَنُوهُ فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ إِلَّا أَنَّه يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ**».

- **والقلــوب الرحيمة تجد عــذراً للمخطئيــن!** وما قيمة المصلحين في مساحة من الأرض وهم يسدون أبواب المغفرة في وجوه المذنبين؟!.

• التصرف مع كل مذنبٍ بما يناسبه:

فرق كبير بين مذنب يقع عَرَضاً في الخطأ، ويأتي إليك يبحث عن الخلاص، وحرارة الذنب وألم الخطيئة قد أخذت من مشاعره كلَّ شيء، فمثل هذا يحتاج إلى هذه المساحات التي كان يصنعها ﷺ مع المخطئين.. **وبين مخطئ آخر يحتاج إلى نوع من التوجيه** لملابسات الخطأ الذي وقع فيه؛ فمثل هذا كان ﷺ يشدِّد عليه؛ كقوله لأسامة حين قتل الرجل بعدما قال: لا إله إلَّا الله، ردد عليه: «**أَقَتَلْتَهُ بَعْدَمَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟! فكيفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ إِذَا أَتَتْكَ يَوْمَ القِيَامَةِ؟!**» قال أسامة: كان متعوذاً. قال: «**أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَها أَمْ لَا؟!**».

وربما هجر ﷺ بعض العصاة تأديباً؛ كما في قصة الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك.

وكان ﷺ إذا بلغه الحدُّ لم يسقطه عن العصاة حتى لو شفع فيه من شفع، وفي قصة شفاعة أسامة، قال ﷺ: «**أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ؟!**».

- **وإذا قارنت بين هذه المواقف بتأمُّل عرفتَ أنه ﷺ كان يتصرف في كل خطأ بما يناسبه من موقف**، سواء تلك المناسبة لطبيعة الذنب ومكانته من الشريعة، أو لِمَا يترتب

عليه، أو لطريقة المقارفة التي تمت من أولئك الأشــخاص.. **وهذا نوع من الفقه الذي يحتاج كل مســلم إلى قراءته قراءة وافية حتى يحسن فن الاقتداء!** وما أكثر ما يواجه الإنسان على تعدد مسؤولياته من الأخطاء التي تحتاج إلى هذا الفقه، حتى لا تصبح كلُّ الأخطاء في ميزان واحد، وينظر إليها كذلك من باب واحد، فيترتب على ذلك من المفاســد ما لا يفوت إلَّا على جاهل.

وقد يتدخل ﷺ في الخطأ ويوجه بما يناسب ذلك الخطأ: كما في قصــة معاوية بن الحكم الســلمي، حين عطس أحد الصحابة في الصلاة فشمَّتَهُ وهو يصلي، فقال ﷺ بعد الصلاة: «**إنَّ هذه الصلاةَ لا يَصْلُحُ فيها شيءٌ مِنْ كَلامِ النَّاسِ**».

وربما أزال ﷺ المنكر بيده؛ كما في قصة من لبس خاتماً من ذهب، فنزعه من يده، وقال: «**يعمدُ أَحَدُكُمْ إلى جَمْرَةٍ مِنْ نَارٍ فَيَجْعَلُهَا فِي يَدِهِ**».

وكان إذا احتــاج أن ينكــر منكراً عامّاً، قــال: «**ما بالُ أَقْوَامٍ؟!**».

وربَّما عاقب ﷺ بعض العصاة بعدم الصلاة عليه؛ كما في قصة من قتل نفسه فلم يصلِّ عليه تأديباً وعظة لغيره..

- والكبار وأصحاب المسؤوليات ومن يتولى إدارة الناس، عليه أن يكون في مســـتوى الحدث، ولا يمكن أن يأتي ذلك إلّا من خلال قراءة الوحي قراءة ممعنة، واستعراض سيرته ﷺ، وقراءة مواقفه بجلاء، حتى لا تتكرر الأخطاء، وتتسع مساحة الفوضى في مكان ما.



١٠

تعامله ﷺ مع المنافقين

كان ﷺ يتعامل مع كل إنســـان أو طائفة أو موقف بما يناسبه، وتجري تلك المواقف التي يفعلها ﷺ لمصالح دينه ورسالته، ويُحْدِثُ من خلالها منهجاً يصلح أن تتربَّى عليه الأمة بعد ذلك إلى قيام الساعة، ومن ذلك: تعامله ﷺ مع المنافقين.

- **كان ﷺ يجري على المنافقين أحكام الإسلام في الظاهر:**

ويقبل اعتذاراتهم، ويكلهم إلى ســرائرهم، فلم يكن ﷺ يُبْقِ لهم مَعْلَماً ينضـــوون تحته، أو يصنعون من خلاله تجمُّعاً يناهض تجمُّع المسلمين، ومن ذلك: هدمه مسجد الضرار!.

- **الصبر على أذاهم:**

وكان ﷺ يصبر علـــى ما يصيبه منهم من أذى، كما في قول القائل يوم حنين: والله إن هذه القسمة ما أُريد بها وجهُ الله! فقال ﷺ: «**يَرْحَمُ الله مُوسى؛ فَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ**».

ـ والكبار لا يحسنون الالتفات، وما أكثر عوائق الطريق! وتوقع من هؤلاء كل شيء.

• كشف صفاتهم وأعمالهم:

وكان هديه ﷺ في المنافقين: كشف صفاتهم وأعمالهم، دون ذكر أعيانهم..

كما قال ﷺ: «**ليسَ صلاةٌ أثْقَلَ على المُنَافقين مِنَ الفَجْرِ وَالعِشَاءِ**».

وقال ﷺ في المؤخِّرين الصَّلاة: «**تِلْكَ صَلاةُ المُنَافِقِ**».

وقال ﷺ: «**آيةُ المُنَافِقِ ثَلَاثٌ...**».

وقال ﷺ: «**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقاً خَالِصاً...**».

وقال ﷺ: «**خَصْلَتَانِ لَا تَجْتَمِعَانِ في مُنَافِقٍ: حُسْنُ سَمْتٍ وَلا فِقْهٌ في دِينٍ**».

ـ وفي مرات كثيرة تحتاج أن ترسم معالم الطريق لمن معك، وتصنع منهجاً صالحاً للحياة مع طول الزمن، وستتربى الأمة من خلاله ولو بعد حين.

• النهي عن إكرامهم:

وكان ﷺ ينهى عن إكرامهم، قال ﷺ: «**لَا تَقُولُوا لِلمُنَافِقِ: سَيِّدٌ، فَإِنْ يَكُ سَيِّداً فَقَدْ أَسْخَطْتُمْ رَبَّكُمْ**».

- **عدم توليتهم:**

ولم يكن ﷺ يسند إلى أحد منهم شيئاً من الولاية.. والخونة لا يُمَكَّنون من مسؤولية، وهم أشد على دين الله تعالى وأعدى له من كثير من الأعداء!.

ـ **وقد كشف الله تعالى سرهم وفضحهم**، وأبان صفاتهم في القرآن في سورة التوبة والمنافقون.

ـ **فلا تتهاون بالقوم**، فهم شر زمانك، وظلام نهارك، وسواد ليلك: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤].

ـ ولا يَفُتْكَ ـ ومثلك أوعى ـ **إذا رأيت تفرقاً وسمعت بخلاف؛ فهم نواته**، ورأس المذمة فيه.

ـ **ولم يخلُ منهم زمان** لا كَثَّرهم الله، وإذا أردت معرفتهم بيقين فارقبهم حال الأحداث وأيام الفتن والأزمات، فستراهم عراة من كل شيء!.

١١

تعامله ﷺ مع كبار السن

• إكرام ذي الشيبة:

كان ﷺ يقوم لكلِّ إنسان بحقه، ويُجِلُّ السابقين في الإسلام، ويؤكد على العناية بهم..

ومن ذلك: أنه كان يوصي بإجلال الكبار ويجعل ذلك من دين الله تعالى، قال ﷺ: «**إنَّ مِنْ إجلالِ اللهِ إكرامَ ذِي الشَّيْبَةِ المُسْلمِ**».

وتبرأ ﷺ ممَّن لم يعتنِ بهم، فقال: «**ليسَ منَّا مَن لَمْ يُوَقِّرْ كبيرَنا**».

ولمَّا دخل مكة فاتحاً، ودخل المسجد الحرام، أتاه أبو بكر الصديق بأبيه أبي قحافة يعوده، فلمَّا رآه رسول الله ﷺ، قال: «**هَلَّا تَرَكْتَ الشَّيْخَ فِي بَيْتِهِ حَتى أكونَ أنَا آتِيَهُ**».

وكان ﷺ ينهى عن قتلهم في المعارك، وإذا بعث سرية قال: «**لا تَقْتُلُوا شَيْخاً كَبِيراً**».

وكان ﷺ يقدّمهم في أمور كثيرة، ويقول للقائل إذا أراد أن يتحدّث وفي المجلس من هو أكبر منه: «كَبِّرْ كَبِّرْ».

وأمر بسلام الصغير على الكبير.

- وإن ديناً يرعى هذا المعنى، ومنهجاً يسطّر هذه المساحات، وقدوة تثري هذه الأفكار والمفاهيم في التعامل مع المسنين، لهي كل شيء.

- من جمال هذا الدين أنه يقوم على رائع الأخلاق، ومن قرأه بإنصاف وجد فيه كل شيء.

- وما حُرم إنسان الأدب إلَّا من حرمان معرفته بدينه، وعدم الاطلاع على سيرته ﷺ.. ومن كمال الفقه والوعي: أن تُجَلَّ هذه السيرة، ويعتنى بها، وتقرأ قراءة تأملية يأتي الإنسان منها على كل أمانيه.

عشاء الأربعاء

١٤٤٠/٦/٢٢هـ

***

الفهرس

الفصل الثاني

قصة البعثة والدعوة

الفصل الثالث

قصة الهجرة النبويَّة

الفصل الرابع

قصة الجهاد (الغزوات)

الفصل الخامس
قصة الوداع

الفصل السادس
قصة الشمائل النبويَّة

الفصل السابع
قصة تعامله ﷺ مع أصناف البشر